



كتب تفاعلية

ترجمة
الشرق والغرب

شهر العسل المر

قصص ايطالية مختارة

ترجمة
ادوار الخراط

الكتاب السادس عشر

الجزء الأول

كتب ثقافية

ترجمة

من الشرق والغرب

شجر العسل المر

قصص ايطالية مختارة

ترجمة

ادوار الخراط

ايجنازيو سيلونى

ولد فى سنة ١٩٠١ فى بلدة صغيرة فى جنوب ايطاليا ، وتلقى فى صباه انطباعات مسيحية كان لها أفعلى الأثر طوال حياته التى يهيجها أبدا نشاط سياسى لا يفتر ونشداً فكري مرتبط أبداً بالمستضعفين من الناس .

وقد اختير ، وهو فى السابعة عشرة من عمره ، سكرتيراً لحركة الفلاحين التى أخذت تنمو ويشهد ساعدها فى بلده ، ثم أصدر جريدة اشتراكية فى روما ، والتحق بالحزب الشيوعى وكان عضواً بلجنته المركزية ابتداء من سنة ١٩٢٥ . وهاجم الفاشيين فى جريدته ثلاث مرات ، وواصل كفاحه السرى تحت الفاشية ، ثم استقال فى سنة ١٩٢٩ من الحزب الشيوعى ، وغادر ايطاليا لاجئاً الى سويسرا حيث كتب « فونتمارا » و « الخبز والنبيد » و « القمح تحت الثلج » وبقي فيها حتى ١٩٤٤ ، وفى أثناء الحملة الايطالية ، قبل سقوط الفاشية عاد الى ايطاليا مستخفياً ، كأحد أبطال رواياته ، فى زى قسيس ريفى ، بعد أن كان قد أصبح عضواً فى اللجنة التنفيذية للحزب الاشتراكى الايطالى فى سنة ١٩٤٤ ، وعاد الى مشاركته النشطة فى السياسة فعمل محرراً رئيسياً بالجريدة الاشتراكية « أفانتى » ، وانتخب عضواً فى الجمعية التأسيسية . وهو الآن رئيس الفرع الايطالى لجماعة « الشعر والمقالة والقصة » (القلم)

وفى كلمة من كلماته أخيراً : لا ينبغي أبداً أن نوحّد بين قضية القيم الخلقية ، ولين الدولة

وهى عبارة تكشف عن جانب هام من موقفه .

من ذلك كله يتبين اهتمامه بالمصير الانسانى فى المجتمع المعاصر الذى يخوض غمار ثورة انسانية شاملة

وسيلونى من أول ممثلى تلك الحقبة من المفكرين الثوريين الذين حبطت آمالهم فى الربع الثانى من هذا القرن ، وتبين لهم أن أزمة الانسان المعاصر ما زالت ممتدة عميقة متغلغلة الجذور . وتنصب عنايته فى أعماله الفنية على علاقة الثورى بالرجل العادى فى حياته الشاقة المكبوتة . وقد اشتق سيلونى لنفسه ، نوعا من الفوضوية المسيحية المعذبة ، فيها استشهاد المسيحيين البدائيين واستقامتهم الخلقية النزيهة الصلبة ، وفيها تلك الصلة الحميمة الوثيقة بالمستضعفين ، فى أرضهم الممزقة الغنية بالوعود ، وفيها ثورية لا يائسة ولا مخدوعة .

ورواياته تجرى فى مستوى صوفى من الوضاعة الانسانية التى تمتد فى حنو متألم على عذابات الانسان ، وفى وجدان عميق بعواطفه الساذجة الوطيدة ، وفيها ألفة به ، ومحبة له ، ولكن فيها أيضا شجاعة القديسين التى لا تؤمن - كما قال « بموت المسيح ولا ببعثه ، ولكنها تؤمن بعذابات احتضاره » . « فما زال الجوع والعطاش الى العدالة يعيرون ويطردون ويدانون بالموت .. وما زلنا فى يوم الجمعة الحزينة »

والريف الايطالى فى أعماله الروائية يحيا ويستضىء ، ويطرد على نسق حياته الشقية الصابرة الخشنة ، ويموج بناسه وقد كشفت عنهم محبته المسيحية المعاصرة فاذا هم مصلوبون دائما ، باحثون دائما عن الطريق ، والثوريون معهم مصلوبون أيضا ، ولكنهم لا يستنيمون وما زالوا ينشدون معهم الملكوت على هذه الارض

وأيا كانت المآخذ التى يمكن أن تؤخذ على سيلونى ، من الوجهة الايدلوجية أو من حيث الموقف السياسى ، فلا يمكن أن تنكر عليه أصالته الفنية ، وعمق حسه بالعذاب والاخوة بين المضطهدين فى الارض ، وبعثه المخلص الحار عن العدالة وان تباينت الآراء فى الطريق التى تتخذ الى هذه العدالة

« العودة الى فونتمارا »

ايجنازيو سيلوني

ما أن وصلني خطاب كاهن الابرشية حتى عقدت عزمي على الذهاب . واخترت السفر بقطار الليل ، لاسباب شخصية . وقد تطوع أحد أصدقائي ممن أثق بهم أن يذهب بي في سيارته . ولكنني رفضت ، وأنا أتمتع بأعذار وتعللات مرتجلة غامضة .

وقلت في النهاية حتى ألجئه الى الصمت :

— كنت ، لما تركت البلد منذ خمس وعشرين سنة ، كما تعرف — قد أخذت القطار . . ألا تستطيع أن تفهم ؟

ولكنه مضى يلح بي :

— ولكن الحرب قد أصابت الخط بأضرار كبيرة . والكبارى ليست في الغالب الا كبارى خشبية مؤقتة . والقطار يزحف بسرعة السلحفاة . سوف تقضي الليل كله مسافرا

فقلت ، في شيء من الضيق :

— أحسن

وطوال الليل جعلت وجهي الى نافذة عربة السكة الحديدية وكان بوسعي أن أرى منها مشهدا قد وسم ذاكرتي ، لايمحي ، وهو ينفتح أمامي : غيطان صغيرة حجرية ، وجبال مظلمة مجدبة لا أثر فيها لماوى انساني . ورأيت محطات قروية مهجورة تظهر وتختفي ، ورأيت أبوابا موصدة ونوافذ مغلقة وبيوتا متداعية وحيطان مهدمة ، وأنقاضا حيثما اتجه البصر . . وكانت الرائحة العفنة التي تنبعث عن الرجال والنساء المكفوفين الى جانبي في الظلمة ، يحزمهم وحقاتبهم وصناديقهم

المحشوة بما اشتروه في البلد ، تميل بنى لادراك أنهم من الفلاحين ، وقد كان يبدو على بعضهم مظهر الموت ، في نومهم عند الفجر ، وعلى البعض الآخر مظهر الهلع ، كصوص قبض عليهم متلبسين ، بينما كان البعض الآخر يبدو مجهدين كما لو كانوا قد اقتربوا فسقا بالمحارم ، أو قتلوا زوجة لهم أو أبا . ولكنهم نفضوا أنفسهم ، عندما سمعوا صوت الكمساري الذي يرن بنبرة السيطرة ، واستأنفوا على الفور مظهرهم التحفظ الذي لا ينال منه شيء ، ذلك المظهر الذي يتخذونه عادة في ساعات صحوهم .

وبينما كنت أحاول أن أشق طريقى ، فى الممر ، بين أجسام زملائى فى السفر ، وهم مستلقون على الأرض ، وبين متاريس الحوائب والشوالات ، سمعت صوتا ينادينى :

- هيه ، ماذا تفعل هنا والله فى هذا القطار ، أتعود الى بلدك هذا فنتمارا ؟

فأجبت مخنقا :

- لست أفعل الا ما يفعله الجميع . أسافر .

واقرب الصوت ، وألح بى ، فى نبرة المتآمرين :

- ولكن أين بالضبط ، فنتمارا هذه ؟ فى أية قرية من هذه القرى كنت تفكر عندما كتبت عنها ؟ آيسلى ؟ أورتونا ؟ ليتشى ؟

ودخل القطار فى محطة .

فقلت وأنا أقفز الى الخارج :

- هذا سرى .

فصباح الآخر من النافذة :

- أين حقيبتك ؟ هل نسيتها ؟

فأجبت :

- ليس عندي حقائب • رح في داهية •

لم أكن قد أتيت معي بمحتاج ما • كنت أحس أن الأمر
ليصبح جد سخيف ، حقا ، لو أنني وصلت هنا ومع حقائبي
كالسائح أو السمسار المتجول • كنت قد خرجت ، منذ
خمس وعشرين سنة ، من نفس هذه المحطة ، ولم أكن أحمل
حقائب عندئذ • سافرت بالليل كاللص ، ولم يدر بخلدي أن
كل هذه السنوات سوف تنقضي قبل أن يكون بوسعي أن
أعود • وكان لازارو ، صياد الضفادع ، قد أصر على أن
يوصلني • كان اشتراكيا قديما ، ومن أهالي البلد •

وكنت قد قلت له : لا تأت • قد يتعرف عليك الشرطة ،
ويتهمونك • لا تجعلني أندم على ذلك

فأجاب : سأزعم أنه قد تضادف وجودي بالمحطة عرضا •
سترى • لن أقول لك ولا كلمة واحدة •

وهكذا جاء ، مع بنته ، وحمّاره ، إلى الوادي ، ومنه إلى
المحطة • ولكننا بالطبع ، انتهينا إلى أن نتبادل الحديث •

وقال لي : امضي بعيدا • وانس أرض الحزن هذه • حسن
أنك ما زلت صبيا وأن أمامك كل الفسحة من الوقت حتى أن
تنسى •

فأجبت : لازارو ، أقسم لك أنني لن أنسى •

فرد في عنف : سوف تنسى • سوف تنهي دراستك ،
وتتقدم في الحياة ، وستنسى بالطبع : ستري كيف يسهل
عليك أن تنسى

فقلت : لا زارو ، لماذا نتعارك ونحن نفترق ؟ أقسم لك ،
يا لازارو ، أننى لن أنسى .

فقال مؤكدا : لا أريد أن أتعارك . هذا آخر ما يدور بذهنى
.. ولكنك سترى ، هذا ما سوف يحدث ، سوف تتقدم أنت
أيضا فى الحياة ، وستنسى . صدقنى : أننى عجزت - فى
سن جدك - وأعرف الحياة خيرا مما تعرفها .

وواصلت اعتراضى واحتجاجى عليه ، والدموع فى عيني ،
وأنا أعالج فى مشقة ، ألا أنفجر باكيا . بل توصلت لورينا ،
بنت لازالو ، الى أبيها أن يكف ، أو يتكلم عن شيء آخر .

وقالت لورينا : لعل هذه آخر مرة تتحدثان فيها الى أحدهما
الآخر ، لعلكما لن تريا أحدهما الآخر مرة أخرى ، ومع ذلك
تتعاركان .

فقال الشيخ ، فى اتضاع واعتذار : هذا آخر ما يدور
بذهنى ، خاصة الآن ، ونحن نفترق . ولكن ما أقوله شيء
طبيعى ، لا أكثر . والشئ الطبيعى فى نهاية الامر هو الشئ
الصحيح . سوف تستقر كما كنت أقول ، وتتقدم فى الحياة
وسوف تنسى .

فاستدارت بنته لورينا الى ، فى أسى بالغ . وقالت : يجب
أن تفهمه . فالحقيقة أنه يكن لك حبا عظيما . أنت لا تتصور
كم يحبك . لا تتصور كيف يتحدث عنك عندما لا تكون
موجودا . إنه يكن لك حبا أعظم مما يكنه لى ، أنا بنته .

فقال الشيخ وهو ينفخ رأسه موافقا : لعل ذلك صحيح -
بل الحقيقة أن الامر هو فعلا كذلك . ولكن من أنا ؟ فلاح
فقير . ومن هو ؟ شخص مثقف . وكل الاشخاص المثقفين
سوف يتقدم فى الحياة وينسانا ، وينسى هذه الارض العسة
وقد طالت رحلتى عما كنت أتصور ، وطال غيابى أيضا .

فبعد بضع سنوات ، فى ١٩٣٠ ، لجأت الى قرية سويسرية ، مريضا بخائر القلب ، وخيل لى عندئذ اننى لن أعيش طويلا ، فأخذت فى كتابة حكاية أسميتها فونتمارا ، وبنيت لنفسى قرية ، بلحمة ذكرياتى وأحلامى ، وأخذت أعيش فى هذه القرية ، وكانت نتيجة ذلك حكاية بسيطة مستقيمة ، ولكن قراءها ، فى بلدان كثيرة ، وجدوا فيها ما يثير المشاعر ويمس القلب ، بفضل تلك الاشواق الغامضة التى كانت تشيع فيها . وسمعت بعد ذلك أن هذا الاسم نفسه فونتمارا ، وهو اسم قد اخترعته اختراعا ، يطلق بالفعل على عدة قرى فى جنوب ايطاليا ، وأن الاحداث التى حكيتها قد وقعت فعلا قبل ذلك بقليل فى أماكن مختلفة ، وان لم يكن ذلك بنفس السياق الذى ذكرتها به فى الكتاب ، ومع تفاوت فى التفاصيل ، ومن الواضح مع ذلك أنه ليس ثمة ما يدعو لأن تقلل هذه المصادفات المتعددة من قيمة شطارتى هذه ، بل أعتقد أنها إنما تزيد من قيمتها . فالكثير جدا من الناس يشتركون فى أسماء مثل ماري وجون وفرانسيس ولويس الى آخره ، والكائنات البشرية جميعا تشترك فى الاحداث الهامة حقا فى الحياة ، فى الميلاد والحب والالام والموت ، ولكننا مع ذلك لا ينالنا التعب أبدا من الحديث عنها .

أسفا ، ليس من السهل عندما ينمو المرء ويصل الى نضوج ، أن يعود الى مسارح الطفولة ، هذا اذا كان لم ين يفكر فيها طوال سنين الغياب ، اذا كان لم يك ، على البعد ، أن يخيل أحداثها كما يتصور وقوعها . بل ان ذلك ليتمكن أن يكون عملا فيه مغامرة وخطر .

لذلك شدد ما كان حرجى بالغا ومؤلما ، بعند أن أذاعت الصحف والراديو خبر عودتى الى ايطاليا ببضع أيام ، أن جاء الى روما وفد عجيب مؤلف من أعيان القرى ورؤساء الاحزاب السياسية المحلية ، ليزورنى ويقتبس طرح على تنظيم برنامج

للاحتفالات ، احتفاء بعودتي الى بلدتي التي ولدت فيها . ثم يكن بوسعي أن أرتجل تلك الخطبة الصغيرة المألوفة التي تخفي عن هؤلاء الناس الطيبين تحت سستار من التعللات والاعذار التقليدية ، مدى ما كنت أحسه من اشتبشاع لمجرد فكرة العودة وسط مظاهرة من الصخب والفصاحة الى تلك الاماكن المثقلة عندي بذكريات لا يمكن وصف ما فيها من أسى . ومن ثم رجع الوفد ، متحيراً . وقد سمعت فيما بعد أنه لم يستطع أن يستقر على رأى فيما اذا كان رفضي الذي لا كرم فيه يعزى الى صلابتي السياسية المتطرفة ، أو الى كراهتي المريضة للانسانية جمعاء . الا أن الامر ، لحسبى حظي ، قد استقر عند ذلك الحد .

ثم جاءني خطاب كاهن الابرشية ، وبدأ لي لاول وهلة انه خطاب من النوع المألوف ، يرجونى أن أفيد من نفوذى فى مصلحة حكومية ما ، لكى أحصل على منحة لسجين سابق قد عاد الى القرية أخيراً ، ذلك النوع الذى ألفت أن أتلقياه من الخطابات ، فى الواقع . ولكن اسم السجين السابق أيقظ عندي صدى لم يكن كاهن الابرشية ليشتبه فى وجوده . فقد كتب لى : أنت بالطبع لا يمكن أن تعرف من هو هذا الرجل البائس ، اذ حكم عليه بالسجن لجريمة ارتكبتها فى نفس السنة التى ولدت أنت فيها .

وقد كانت تلك هى الحقيقة . لكنها لم تكن كل الحقيقة .

وبحثت عبثاً ، فى ميدان المحطة ، عن الاتوبيس الذى كان ينوغل صاعداً على سفح الوادى حتى بلدة ب . وقيل لى أنه قد أوقف عن السير ، منذ بضع سنوات .

واقترح على معاون البزيد : انتظر هنا . قريباً مرت عربة أو نحوها . أنت من أهالى هذه النواحي ، أليس كذلك ؟

ورأيت فى وسط الميدان نافورة كبيرة ، تحتشد حولها

النسوة • وكانت طريقتهن التقليدية في الكلام ، وحركاتهن التقليدية ، كما لو كن يؤدين طقوسا دينية عنيفة ، تهبط على قلبي كقطرات من العسل • وكانت النسوة الشابات يعقدن مبادئهن في مؤخرة العنق ، والعجائز يعقدونها تحت الذقن • وعندما تملأ أحدهن جرتها بالماء تساعدنا الأخرى في رفعها ووضعها مستقيمة على الخرق الطرية التي تقي رأسها • حتى النساء العجائز كن يرفعن رؤوسهن عاليا تحت حملهن ، ويسرن مرتفعات القامة ، حتى لا ينسكب الماء • وكانت تجلس على مبعدة ، أم تؤرجح طفلها في ظل شجرة وكان المهد على شكل سفينة صغيرة دقيقة تهتز في حركة بطيئة متموجة • ثم وصل بعض الفلاحين إلى المحطة ، مرتدين ملابس الإحد ، يثقلهم متاعهم المكظوظ ، ويبدو عليهم ، كالعادة ، مظهر اللاجئين ، أو المتشردين •

وسألت معاون البريد وأنا أقلب النظر حولي : هل جاءكم الحرب هنا • • لا يبدو على البلد شيء من ذلك ؟

فقال لي مفسرا : ان القدر قد اضطهد هذه القرية • حتى الزلزال لم يمر بها • لذلك فليس لدينا هنا تعمير ، ولا إعانات من الحكومة ، ولا أي مساعدة على الإطلاق ؛ لا شيء إلا الفقر ، الفقر • الفقر •

وعقدت عزمي فجأة على أن أذهب ماشيا ، بل خيل إلى أن ذلك أحب لي •

فحذرنى معاون : ستظل تمشي ساعتين على الطريق • وأنت لا تعرف تلك الطريق ، انها متربة ، صخرية •

فأجبت بهجة البلد : سأأخذ الطريق الأقصر •

فصاح : آه • أنت من أهل البلد •

وسرعان ما جاءت في الوادي مشاهد أكثر غريبا واجدأبا ،

لتحل محل الكروم المتشابكة الصفراء والخضراء • ولم يكن
يزيل التلال الكثيرة الا بضع أشجار جميز ولوز عجفاء، وبضعة
صلبان تكاد تبدو مصنوعة من الورق المقوى • وخطرت لي
فكرة أن الشباب ليس تجربة يحددها الزمان فحسب ، بل
المكان أيضا • وتساءلت كيف يمكن للناس ، اذا ما بلغوا
سنا معينة ، أن يعبروا الحدود الى اراض جديدة فى الروح ،
طالما كانوا يواصلون الحياة ، فى الجسم ، فى نفس الببلد
القديم ، طوال الوقت ؟ ان من الايسر ، والابسط ، عندما
تبلغ سنا معينة ، بل ربما كان من النزاهة أيضا ، أن
تسافر • ولكن السفر - عندما يتأتى لك أن تفكر فيسنة -
ما معناه حقا ؟ كم من أولئك الذين مكثوا هنا ، دائما ، ودفنوا
الآن هنا ، كم منهم قضى حياته يتنهّد شوقا للبلاد الغريبة ،
بينما من المسلم به ، من قديم ، أن الحنين للوطن هو شكاة
المهاجرين التى لا تنقطع ؟ هذه الارض - هل نسيتهأ أنا أبدا؟
هل دار بخيالى حلم بشيء ما لم تكن هنا بدايته ونهايته ؟
وعندما كنت أسير ، أخذت أحاول أن أصل حلقات السهرات
واحدة بالآخرى ، وأن أعود فأرسم خطوط النمط الذى سارت
عليه حياتى ، وعبثا ساءلت نفسى ما اذا كان لها ثم معنى

التقيت برجل بوليس ريفى يعلق بندقيته على كتفه ويحمل
صفا معلقا من الضفادع المسلوخة مغروزة فى فرع صفصاف

فقلت له : كان هناك صياد ضفادع فى ب • رجل اسمه
لازارو • هل كنت تعرفه فى وقت ما ؟ ماذا جرى له ؟
فأجاب رجل البوليس : مسكين • لم يصادف الا المتاعب
طول حياته • ولكنى أؤكد لك ، كأن ذلك ذنبه • كان مجنونا
حقا • لم يكن شريزا ، بل مجنونا •

فسأله : أى متاعب ؟

فأجاب : كل أنواع المتاعب • ولكن يجب أن نقول أنه جعلها

على نفسه . الحقيقة أنه لم يكن يستطيع أن يهتم بحسالة ،
ويدع شئون الآخرين . هذه هي الطريقة التي أصابه بها
الجنون .

سألته : كان عنده بنت اسمها لورينا ، أليس كذلك ؟
ماذا جرى لها ؟ أين هي الآن ؟

فأشار رجل البوليس بيديه إشارة غامضة ، يعنى أنه لم
يكن يعرف .

فى نقطة من الطريق ، يضيق الوادى ويدفأ ، ويختزن
الحرارة كما لو كان محضنا زجاجيا . وسرعان ما يفضى به
الممر الذى يسير محاذيا للجدول ، الى حيث كانت المياه
إلساقطة من حائط صخرى تتجمع فى بركة صافية رقراقة .
كنت فى صباى ، آتى كثيرا هنا لاجلس على الشط ، أدلى قدمى
فى التيار المثلوج ، وأرقبه ينساب تحتى ، وبعد قليل كان
الشط يتحرك ، وأنا مع الشط .

وفى نفس المكان وجدت الآن عجوزا تستريح على العشب ،
وبجانبيها سلة مليئة بالجوز . وكانت تبدو ، فى ارهاقها
وكلالها ، وقد أسلمت نفسها للتعب ، شيئا غريقا ممددا على
العشب ليجف . وما أن أبصرتنى حتى اعتدلت وأصلحت من
ملابسها . وقالت لى انها كانت فى السوق الاسبوعى فى م .
لتحاول أن تبيع الجوز ، ولكن أحدا لم يشتري منها شيئا .
وقد كانت هذه المرة الثالثة التى تاتى به للسوق .

فقلت : ولكن حتى اذا بيعت الجوز ، كم تنالين فى مقابله ؟
هل يعوضك عن كل هذا التعب ؟

فأجابت : التعب ؟ امرأة مثلى ، ربة عائلة ، هل بوسعها أن
تتوقف لحظة لتفكر فى التعب ؟

وقالت أن لها بنتا مريضة فى البيت ، وقد كتب الطبيب لها

برشاما • والبرشام يكلف نقودا • وقد تحساول • ثلاثة
أسابيع • دون نتيجة • فاذا ماتت بنتها في أثناء ذلك • ماذا
يقول الناس ؟ سوف يقولون : « الذنب على أمها »

وسعلت المرأة العجوز • وأخذت تتلمس الأرض وتنافح
للنهوض على قدميها في حركة عشواء • لتستأنف سعيها •
ومشيت بجوارها قليلا • أحمل لها سلتها •

قالت : يجب ألا أستريح فترة طويلة • فاذا استرحت فترة
طويلة صعد التعب كله الى أعلا • وما عاد يوسعى أبدا أن
أن أنهض بعد ذلك على قدمي • ان ما بقي لي من قوة قليلة
لينتهاز الفرصة عندئذ ويتركني الى الأبد • حتى بالليل •
يجب أن أقوم مرة أو مرتين من سريري • لاننى أنا أخبز
لقريتنا كلها • لذلك لا وقت عندي للاحساس بالمرض

وبعد مسافة قصيرة افترقت بنا الطرق • لأن المرأة كانت
تسكن ناحية ف •

وسألتها : هل تصادف مرة انك كنت تعرفين فلاحا عجوزا
من ب • اسمه لازارو ؟ كانوا يسمونه صياد الضفادع ؟

فأجابت : فعلا كنت أعرفه المسكين الطيب القلب • وما أشق
الحياة التى أرغموه أن يحيها • كان قديسا • لا أحد يستطيع
أن يتكلم بكلمة رديئة عنه • لم يؤذ مخلوقا حيا أبدا في حياته
لكنه لم يكن يعرف أن يسلم • لم يكن يستطيع أن يحنى
رأسه •

قلت : يجب ألا يسلم المرء أبدا بالذل • يجب ألا يسلم
المرء أبدا بالظلم •

توقفت المرأة ونظرت الى فى عطف عميق ورحمة •

وقالت : مسكين • انت اذن واحد من الصنف نفسسه ؟

ولكن يا بنى ، يا مسكين ، ما الفائدة ، قل لى ، ما الفائدة؟
فلاحسن أن تسلم

فأجبتها : واذا سلمت ، فما الفائدة فى ذلك ؟ انت مثلا ،
يا أمى . . هل أفادك التسليم فى شىء ؟

فقلت : لا لم يفدنى أبدا . ولكن اذا كان يتساوى أن نرفع
الرأس أو نخفضها ، فلاحسن أن نخفضها . لخلاص أرواحنا
قلت : كان عند لازارو بنت . اسمها لورينا . أهى ما تزال
تعيش . ؟

فأجابت المرأة : ما زالت تعيش . تعيش مثلى ، كما يجب
أن تعيش المرأة الفقيرة ، خافضة الرأس . نحن جيران ،
بالصدفة .

ثم قالت : سأخبرها أننى قابلتك . ستفرح لذلك . ما اسم
أبيك ؟

فقلت : لا يهم الاسم .

وها هى ب ، على قمة التل ، لم تتغير القرية منذ يوم أن
غادرتها ، وكان بوسعك أن تسرى فى وسط المنازل السوداء
المكتومة تلك الفجوات بأطلالها التى خلفها الزلزال منذ ثلاثين
سنة . وعندما دخلت القرية استبد بى تردد مفاجئ لا تفسير
له ، وخامرتنى الرغبة فى العودة ، فى الهرب . ولعل تلك
بالضبط كانت لحظة اخراج الرغفان من الفرن ، فأتت لى نفحة
من الريح برائحة الخبز الطازج التى ألانت قلبى ، وكسبتنى
كان يسير أمامى شيخ ، وظننت أنه شحاذ ، على الأرجح ،
أو غريب عنى على أى الأحوال . كان يجر قدميه ، ويصق على
يمينه ، كل عشر خطوات تقريبا .

قلت له : يا عم ، تقدر أن تخبرني عن الطريق إلى بيت الكاهن ؟

فتوقف ونظر إلى في شبهة

وسألني : عندك كبريت ؟

فأعطيته عود ثقاب .

فقال : عندك واحد ثان ؟

فأعطيته بضعة أعواد أخرى ، وعندئذ أدار إلى ظهره ومضى في زقاق منحدر ، دون أن يجيب سؤالاً . لكنني وجدته مرة أخرى عند باب عريف الكنيسة .

كان يقول للكاهن : لا بد أنه جاء من أجل الضرائب . أسرع واختبئ .

ولم يعرفني كاهن الإبرشية لأول وهلة، فدعاني ، في حرج ، إلى الدخول في غرفة العريف ، وعلى وجهه ابتسامة خجلى يقصد بها أن تشير عندي الشفقة - ابتسامة حلوة ممرضة كعسل النحل الذي يغتذى بزهور المدافن . ولكنه تنهد براحة ، بعد كلمات القلائل الأولى ، وضحك بانفعال . وأخذ يشور دون ضابط . وكان يريد أن يندفع للخارج لينهي الخبر إلى العدة وإلى أهالي القرية . لا بد أننا كنا أندادا في السن ، إذ كنا معا في المدرسة ، ولكنه كان يبدو أكبر سناً مني بكثير . قلت : انني هنا بمجرد الصدفة . مجرد مرو لا أكثر . وسأمشي الليلة أو بكرة على الأكثر .

فسألني : ألم يعرفك أحد في الطريق ؟

قلت : لقد مرت خمس وعشرون سنة .

فصاحبني : تعني خمساً وعشرين قرناً . بالضبط خمساً وعشرين قرناً .

قلت : أوثر ألا يعرفني أحد • لم تعد لي رغبة في الصخب والضجيج ، والناس القلائل الذين كنت أحب أن أراهم لم يعودوا أحياء •

فقال لي : لقد قاست القرية كثيرا أثناء الحرب • قتل الألمان كل البهائم أو خطفوها • يجب أن تكلم العمدة • باستطاعتك أن تساعدنا بالكثير •

قلت : اننى جئت هذه المرة بالصدفة • تصادف اننى كنت مارا بالناحية ، فقلت أعرج هنا بضع ساعات ، ههنا كل ما فى الامر • لذلك أكون ممتنا لو أنك لم تسلمنى لأحد • ولكنى ما دمت هنا ، فهناك تلك الحكاية التى كتبت لى عنها • أستطيع أن أكلم هذا الرجل كلمتين ؟ فقال ، وهو يقف : سأناديه على الفور ، انه خارج الباب • انه هو الذى كان يخبرنى بقدمك •

وذهب الكاهن الى الباب لينادى الرجل • وناداه مرتين ، ولكن الرجل رفض الدخول •

فقلت عندئذ : اتركنى وحدى معه •

كان الرجل يقف على جذع شجرة دردار ، ملقى تحت جدار حجرة العريف • وكان يجلس هناك خاملا متكاسلا ، كاي شحاذ عجوز •

فقلت له : عندى حكاية لك •

فأجاب : أعطني أولا عود كبريت •

أعطيته عود كبريت وجلست بجانبه • ورأيت أربطة من الخرق حول قدميه ، بدلا من الحذاء • وكان شعره الأرمم ما زال ملبدا ومشعثا • ووجهه ويديه لون تربة مغبرة تغطيها الشقوق • وكانت عيناه أكثر ما روعنى • بلونهما الأخضر

الغريب النادر الذى يكسبهما دلالة عن فطنة حذرة وكليلة .

قلت : اننى اذكر خادما كانت عندنا فى البيت ، لما كنت طفلا . كانت امرأة من القرية ، وان كان باستطاعتك أن ترى من مظهرها وسلوكها ، أنها تنتمى الى عائلة أطيّب من العائلات التى يأتى منها الخدم عادة فى نواحي بلدنا .

فسأل : أنت من هذه النواحي ؟ فما اسم أبيك ؟

فقلت : سوف تخمن ذلك حالا . لم أستطع أبدا أن أفهم لم كان على تلك المرأة أن تعمل خادما فى بيوت الآخرين . وخلال طفولته كلها كان ذلك أحد الأسئلة الكثيرة التى لم يكن بوسعنى أن أظفر عليها الا بإجابات مراوغة . كانت أمى تقول لى : « وقعت لها كارثة كبيرة فى أسرتها ، واضطرت أن تنفق كل مليم عندها على أتعاب المحامين . كن رفيقا بها » . لم تكن تختلف عنا - كما قلت - فى المظهر والسلوك ، ولم يطمأن الحظ العاثر من كبرياتها . وكانت عينها خضراوين كعينيك . هل تعرف أننى سافرت كثيرا ، ولم أعر أبدا على مثل هاتين العينين !

نهض الرجل بغتة على قدميه ، ودعاني أن أتبعه . فقد ارتفع صوت يناديه من مكان ما ، لكنه لم يجب . وأدى بى ، عبر أزقة مهجورة ، الى كنيسة قديمة كان الزلزال قد دمر الجانب الأكبر منها ولم يجر بها تعمير ما بعد ذلك . وظل جزء من القبة ، بين بضع أطلال أخرى ، قائما ، بوسعك أن تراه من بعيد . وكان هذا الجزء مصبورا من الداخل على صورة سماء زرقاء تسبح بها أرواح القديسين تحمل أكاليل الورد ، وكلمة « المجد لله » . وقد ظل أحد أركان البناء سليما ، فأحيط بالجدران وغطى بسقف . وقد صرحت الأبرشية للمسحّين السابق بأن يأوى إليه . لم يكن هناك الا أربع جدران عارية ، لا شيء غيرها ، وما زالت ترى بجلاء وصلات الأحجار

في الجدران وكان ثم فانوس معلق في قطعة من السسلك ،
من عارضة خشبية في السقف . وقامت في الركن نقالة
للنوم ، وبجانبها مائدة عليها رغيف من الخبز ، وبصلة ،
وبضبع حبات من الجوز . وأخذ الرجل ، من طاقة عميقة
محفورة في الجدار ، زجاجة وكوبا وقدم لي - بصمت -
شرابا ، بوقار شماس يصب النبيذ في كأس القسيس ،
وباجلاله .

جلسنا على النقالة ، واستأنفت كلامي .

فقلت : لم تتلق أمك خطابات منك الا عندما انتهت فترة
الحبس الانفرادي الطويلة ، بعد انقضاء الجزء الاول من الحكم
عليك بالسجن مدى الحياة . وبالرغم من ذكائها ، وبالرغم من
يسر حال أبيها ، فلم تكن تعرف القراءة والكتابة . ولم يكن
ذلك غير مألوف في نواحيها ، كما تتذكر . فقد كان أهل
الريف في تلك الايام يظنون أن في تعليم البنت القراءة
والكتابة اسرافا وطيشا ، ان لم يكن حراما بالفعل . وكنت
ما أزال في المدرسة الاولى ، ولم أستطع أن أفهم عندئذ لماذا
أفردتني أمك ، من بين كل الناس الجديرين بالثقة والذين كان
بوسعهم أن يقرأوا لها خطاباتك ويكتبوا لها الردود . وأنت
تعرف الموضوع الواحد الذي لم يتغير في كل خطاباتك ، وكل
ردودنا عنها . واذا لم يغب عنك مدى صغر سني ، ولم
يدهشك أن تعرف أن ذلك كان أول حدث كبير في حياتي
- بلا مغالاة - وقد مررت بعد ذلك بتجارب حدثت مستقبلي ،
وكانت كلها تشبه تلك التجربة الاولى ، في قليل أو كثير .
وقد كان من الأشياء الكثيرة التي كانت تثير دهشتي
وتساؤلي - في البداية - أن كيف تأتي لامرأة أمينة غاية
الامانة كلهمك ، أن تدخلني في مثل هذه المراسلات الخطيرة
دون أن تدع والدي يعرفان شيئا عنها . فسألتها صراحة ، عن
السبب في نهاية الأمر . فقالت : الآن وقد قرأت خطابات

ابنى ، فهل تؤمن ببراءته ؟ فأجبت : بالطبع ، أنا مؤمن ببراءته ، اننى أعرف أنه ليس القاتل . فقالت : أما الآخرون ، فمقتنعون جميعا بجرمه . لذلك لا أريد أن ألجأ اليهم .

سألنى الرجل : أكنت مقتنعا ببراءتى من أول الامر ، من أول لحظة ؟

قلت : بالطبع ، كنت قد عرفت ذلك فورا .
فألح بى : كيف . ماذا دعاك لأن تعتقد ذلك ؟

قلت : كان ذلك فى منتهى البساطة . كنت قد عرفت ، هكذا . . . وقد سألت أمك مرة ، فيم يهمها ماذا أعتقد ، فلم أكن الا صبيبا . فقالت : هذا هو السبب - بالضبط - لأنك مازلت بريثا .

ويتعين على أن أعترف أننى بدأت منذ ذلك الحين أشك فى براءتى تلك نفسها ، وفى براءة العالم ، كانت فكرة جديدة على - تلك - وشغلا شاغلا ، أننى لم أكن لأستطيع أن أشارك أحدا : لا أبوى ، ولا مدرسى ، ولا الكاهن ، يقينى ببراءتك ، وأن كل ما يتعلق بهذا اليقين الخفى ، يتحتم اذن أن يجرى فى الخفاء أيضا . وشعرت أننى أنساق ، بعبارة موجزة ، فى مؤامرة حقيقية ، شريكا لسجين وأمه ، وكان عدوك هو الظلم ، ينضوى تحت لوائه الراى العام والدولة . وكنت أنت ترد أدلة براءتك فى كل خطاب لك . ولم تياس أبدا . بل ثابرت على دحض القرائن التى أدانتك ، فى غياب الأدلة القاطعة على ادانتك . وكم أرقتنى تلك الخطابات ليالى طويلة ، بل كانت تزودنى - عندما أنام - بكوابيس رهيبه . ثم الخطابات التى كنت أكتبها لك . وأنت تذكر أننى لم أكن قد غادرت البلد قط ، ولم تكن قد أتيت لي الفرصة للكتابة لأحد من قبل . وتستطيع أن تخمن أن هذا الواجب الخفى دفع بدروسي الى المؤخرة من اهتمامي . وكان كل خطاب على أن

أكتبه لك يشغلني تماما أياما عديدة ، ولم يكن من السهل على طفل في سنى أن يجد التعبير الملائم لكل ما كانت أمك تخبرني به عن نفسها ، وعن المحامين ، والشهود الزور ، والديون التي يتحتم أن تؤدي ، والعرائض والالتماسات التي ترسل الى الملك ، والى الملكة الأم ، والى ولى العهد ودوق أبروزي ، والبابا ، وحفيدة الجنرال غارييلدي ، واستمر ذلك كما تعرف ، سنين عديدة . وتلك كانت ، طوال تلك السنين ، مغامرتي ، وأسطورتني ، ومؤامرتي ، حتى ماتت أمك بالقلب ، عندما تيقنت أن قضيتك لن يعاد النظر فيها بأية حال . لماذا أحكى لك ذلك كله ؟ فقط حتى أشرح لك لماذا أخذت القطار بالأمس وجئت لأراك ، بمجرد أن تلقيت خطاب الكاهن الذي يذكر فيه اسمك .

وقف الرجل ، وسألني :

- لست أدري ما إذا كنت تحب الفلفل الأخضر . سامحني إذا لم يكن لدى ما أقدمه لك غيره .

وخرج من باب صغير يفتح على الحوش الذي كان فينا مضى فناء الكنيسة ، وقد تراكمت الآن فيه الانقاض والهدم . وقد قامت بين بضع أحجار مسودة ، أششفية للطهو على ثلاثة أرجل . وتبعته .

وقلت : هناك شيء واحد أحب أن أسألك عنه .

- تريد أن تعرف ما إذا كنت حقا بريئا من الجريمة التي قضيت عنها خمسا وأربعين سنة في السجن ؟

فقلت : لا . أبدا . . . انمسا كنت أريد أن أعرف لماذا لم تقل لأحمد على الإطلاق ، لا لمحاميك ولا لأمك ولا للمحلفين ، أين قضيت ليلة الجريمة . لقد حكم عليك أسسنا - كما تعرف - بسبب صمتك في هذه النقطة الجوهرية .

فقال : أرجو أن تصدقني • انني أسئف جدا ، ولكني
لا أستطيع أن أخبر أحداً بذلك ، حتى أنت •

وأخذ يضع حبوبا من الفلفل الأخضر من السلة وفتحها
بعناية ، وأزال عنها البذر ، ونسقتها في مقلاة على أثنية
الموقد •

وقال : لست أدري اذا ما كنت تحب الفلفل الأخضر •
أرجو أن تسامحني اذا لم يكن لدى ما أقدمه لك غيره •

على الطرق المتربة

ايجنازيو سيلونى

كان يحجل على الطريق المترب المهجور رجل ضئيل رث الثياب ، حافى القدمين ، تحيط بيديه القيود الحديدية ، بين شرطيّين من رجال « الكارابنييرى » . وكان يحجل على نحو مؤلم ، كما لو كان يقوم بخطوات صعبة فى رقصة ما . ولعله كان أعرج ، أو لعله أصيب بجرح فى قدمه . وفى ضوء الشمس الساطع كان الشرطيّان بردائهما الأسود يشبهان مساعدي حانوتى ، وكان الرجل الضئيل بينهما يشبه حيوانا وقع فى المصيدة ، فى خندق ما ، ينبض بالحياة وبما فيه من شيء ما يتصل بالأرض . وكان يحمل على ظهره حزمة يصدر عنها صوت صواء ، كصرخة طائر زمن الحصاد ، والصوت يصاحب حركته فى الحجل والوثب .

وكنت أجلس على عتبة الباب ، وقد تفتحت كتاب الاملاء على ركبتي ، أصارع الحروف المتحركة والحروف الساكنة ، عندما لاحظت اقتراب هذا المنظر المضحك المثير للرثاء . وقد كان فيه ترويح غير منتظر لما أنا فيه من عناء ، فأخذت أضحك . وتطلعت حولى أبحث عن شخص آخر أشاركه دهشتى ، وعندئذ سمعت وقع خطوات أبى الثقيلة وافدا من البيت .

فقلت وما زلت أضحك : أنظر ، أليس تضحكا ؟

ولكن أبى رمقبنى بنظرة صارمة ، وأنهضنى بعنف على قدمى ، وجرنى من أذنى الى غرفة داخلية . لم أكن قد رأيته أبدا من قبل على هذه الصورة من الحنق .

فسأله وأنا أدعك أذننى المتورمة : ماذا فعلت ؟

— يجب ألا تضحك أبدا ، أبدا ، من سجين .

- لماذا ؟

- لانه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولانه بعد ذلك قد يكون بريثا ، من يعرف ؟ ولانه ، على أى حال ، عاثر الحظ .

وترك الغرفة دون أن ينبس بكلمة أخرى ، وبقيت وحدى ، فى حيرة جديدة على . ولم تعد تهمنى الحروف الساكنة والمتحركة ، ولا تجميعاتها وتطوراتها . وفى مساء ذلك اليوم ، لم يرسلنى أبى الى الفراش فى الميعاد المعتاد ، بل فعل شيئاً غير مألوف : أخذنى الى الميدان . ولم نجلس فى الطرف الأقصى من الميدان ، بجوار باب الكنيسة ، كما كان دأبه ، بل جلسنا الى مائدة خارج « قهوة الأعيان » حيث كان بعض الناس ينشقون نسمات من الهواء المنعش ، بعد اليوم القائظ .

وكان أبى على علاقة طيبة بوكيل النيابة ، فسأله : ما تهمة الرجل الذى قبض عليه اليوم ؟

وأجابه وكيل النيابة : السرقة .

فواصل أبى أسئلته : من أين أتى ؟ أهو متشرد ؟ متعطل ؟

- هو عامل فى مصنع الطوب . وقد سرق شيئاً من صاحب المصنع . هل سرق منك شيئاً أنت أيضاً ؟

فقال أبى : هذا غريب ! . لقد ظننت ، عندما رأيته حافى القدمين ، لا تغطيه الا خرق مهلهلة ، أنه هو الذى سرق منه شئ ما .

وقد كان منظر سجين ما ، يدهاء مغلولتان بالحديد ، بين شرطيين أو ثلاثة من « الكارابنييرى » منظرأ مألوفاً كثيراً الحدوث فى تلك الفترة ، على الطريق الذى يطل بيتنا عليه . اذ كان يتعين أن يمر من هذا الطريق كل من قبض عليه فى احدى القرى العشر التى تقع فى نطاق اختصاص محكمتنا .

ولما لم تكن وسائل النقل الاخرى متوفرة ، فقد كانوا يأتون بهم على الاقدام . وكان هذا الطريق هو الشريان الرئيسى الذى يصل قريتنا بوادى الفوشينو . وكان الطريق غير مرصوف ، فكان مظهره يتفاوت بتفاوت فصول السنة . وكان يلتئم كل صباح على الطريق موكب طويل من الحمير ، والبغال ، والبقر ، والعربات التى تنتمى الى كل الانواع ، ومن معظم الرجال القادرين على العمل من السكان . وكان نفس الموكب يعود كل مساء ، حتى آخر الليل ، زاحفا ، منهوكا ، فى الاتجاه العكسى . وكان أهم معالم الطريق ، فى جيرة القرية ، نافورة تنصب فى حوض كبير تتوقف لديه الماشية فى الصباح ، وتقف فى صف طويل ، تفتأ ظمأها وتشرب زادها من الماء طول النهار .

وقد كان حدثا مهما ، قبول أبى أن أصحبه الى وادى الفوشينو للمرة الاولى . وأحسست دفعة واحدة أننى قد بلغت رشدى . وقد أيقظنى ، والعتمة ما زالت مخيمة ، ولكنه كان قد أطعم الثيران ، وأعد العرببة أمام الباب . وكان جرم الثيران الهائل ، فى ضوء السحر الباهت ، وتلك البسطة البدائية فى الأشياء المحملة على العرببة : المحراث ، وشوالم من الدريس ، وقواوير النبيذ والماء ، وسلة الطعام الخشبية ، وصيحة الديك الفجائية التقليدية غير المنتظرة ، تمثل كلها تلك الحياة العجاة التى أتيح لى اليوم أن ألج بابها . وقد كان يتحتم علينا أن نبدأ فى ذلك البكور ، لأن غيظنا كان يبعد حوالى خمسة أميال عن القرية ، فى الجانب الداخلى من الوادى ، وقد كان من الأحكم لنا ، وللثيران ، أن نبلغه قبل مشرق الشمس . فالعربة التى تجرها الثيران تتحرك ، كما هو معروف ، بسرعة المشى تقريبا ، ولكن ببطء العسربة كان يتفق ومزاجى عندئذ ، مزاج الصبى الرجل الذى أتيح له للمرة الاولى - أن يشارك فيما يحفل به الراشدون الكبار .

وأخذت أرقب الفلاحين الذين كانوا يرافقوننا على الطريق ،
أو يمرون بنا ، في موكبهم من الماشية والعربات ، واسترغاني
جمودهم ، وجدهم ، وصمتهم ، فحاولت أن أسلك كما يسلك
الجميع ، وأن أخفي مشاعري . بل لم يكربني أن أبى ، وقس
غاصر في أفكاره الخاصة ، لم يكدر يوجه لي كلمة واحدة ، فقد
كان في ذلك البرهان على أنني لم أعد عنده طفلاً . واذ كنا
نتقدم في بطن الوادي أخذ حشد الفلاحين والعربات والبغال
والحمير يتفرق إلى اليمين وإلى اليسار ، حتى لم يعد غيرنا
على الطريق ، في النهاية .

وعندئذ أدرك أبي فجأة أنه نسي شيئاً في غاية الأهمية ،
قسطه من الطباقي في ذلك اليوم . كيف يتأتى له أن يقضى
اليوم بطوله ، في هواء الوادي الرصاصي الثقيل ، من غير
تدخين ؟

لم يكن أكثر الفلاحين فاقة ليستطيع أن يستغنى عن
الدخان في القوشينو . وكانت الشمس قد أشرقت ، وكنا
قد ذهبنا مسافة في الوادي لم يعد ممكناً بعدها أن نفكر في
الرجوع . وأخسست بالمهانة إذ كان أبى لا يفتسأ يردد : لم
أنسه أبداً من قبل ، أبداً ، أبداً . فهل كان يعنى أن الذنب
ذنبى ؟ هاهى ذى سحابة تأتي فجأة ، فتغيم على اليوم الذى
كان ليصبح عندي يوماً مشهوداً . وعندما بلغنا أرضنا ،
أطلق أبى الشيران من العربة ، وعلقها بالمحراث ، دون كلمة ،
بل دون أن يرميني بنظرة واحدة . وكان الطريق الطويل الذى
تحفه أشجار الحور مهجوراً ، شأنه شأن الغيطان المستطيلة
المجاورة لغيطنا . فلم يكن ثم أمل حتى فى أن نجد شخصاً من
معارفنا ، يرضى بأن يشارك أبى فى طباقه .

كان أبى على وشك أن يبدأ فى حرث أول شق فى الغيط ،
عندما نادانى قائلاً : خذ هذه النقود ، وقدمها لأى شخص
يمر بالطريق ، فى مقابل سيجار ، أو شيئاً من الطباقي .

وكانت الشمس قد حميت ، ولم يكن من المحتمل أن يمر شخص ما بالطريق في تلك الساعة . وخلع أبى رداءه ، ورفع المنخاس الحديدى ، وصاح بالثوران فى نبرة الغضب . وجلست مكتئبا على حافة القناة العشوشية التى تفصل الحقل عن الطريق ، وأنا أرقب أبى محنيا على المحراث خلف الثورين ، يذهب ببطء ثم يعود ، ويذهب ثانية ، ويخط خلفه شقوقا مستقيمة ويداه فى التربة التى كان قد سـودها السباح المحروق . وكان الثوران يقومان بمهمتهما ، فى بطء ، وهدوء ، ونظام ، على أن الشمس كانت قد أخذت ترسل شسواظها اللاذعة . ولم يكن حاجز أشجار الحور العملاقة التى تحيط بالحقل من جوانبه الأربعة يهتز بأهون نسمة من الهواء ، وكان الماء فى القناة ساكنا لا حراك فيه ، طينيا ، كما لو كان أسنا راكدا . وغلبنى حس غير مستبين بالغثيان والنعاس ، وشعرت كما لو كنت أوتر البقاء فى البيت ، ولكن صوت أبى ، قرابة الظهر ، بخضنى من همودى . كان يأتى فى اتجاهنا فلاح يركب حماره الضئيل . وقد كانا يبدوان بالفعل كما لو كانا يسبحان على تلك السحابة الدانية الكثيفة من الغبار تثيرها حوافر الحمار المختفية فى التراب . فجريت لألقاهما ، وأظهرت له النقود ، وطلبت على الفور مقايضتها بالطباق ، وأنا أشير الى أبى ، والثورين ، وقد توقف فى وسط الحقل . وكان الرجل يبدو فى مظهره ، من أكثر الفلاحين فاقة .

فأجابنى : ليس عندى سيجار بأكمله . نصف سيجار لا غير .

فقلت ، وأنا أمشى بجوار الحمار : حسنا . . خذ هذه النقود ، وأعطنى ما عندك أيا كان .

فسألنى : ولماذا أقضى النهار بطوله - فى الفوشينو - دون تدخلين ؟ هو أبوك أحسن منى ؟

وأجبتة : ليس أبى أحسن منك . ولكنه اذا ضاق بشيء ما ،
فربما انقضى الاسبوع بأكمله دون أن يتفوه بكلمة .

فقال الرجل : وما له ، يعرف شغله .

وقد أخذ يعترينى اليأس ، وما زلت ماشيا بجوار الحمار .
كيف لى أن أحصل على السيجار ؟

فقلت : عندنا غذاء طيب فى السلة الخشبية ، وسأعطيك
نصيبى اذا شئت . وفى القارورة عندنا نبيذ طيب ، من غنبتنا .

فقال الرجل ، وهو يعطينى نصف السيجار : خذ . خذ .
هدية .

- ألا تأخذ النقود ؟

- لا . . . ماذا يفعل الواحد بنصف سيجار ؟ اما أن يرفض ،
أو أن يعطيه ، بلا مقابل .

فلم أواصل الالاحاح ، كنت فى عجلة من أمرى حتى أذهب
أزهر بما فعلت أمام أبى .

وقال أبى ، عندما أبلغته بحديثى القصير مع الفلاح :
غريبة . . . كان ينبغى على الأقل أن تعرف اسم الرجل .

وانقضت بضعة شهور . وكنت أجلس ذات مساء أمام عتبة
دارنا ، وعلى ركبتى « خرافات فيندروس » عندما أتى ، من
الطريق ، ذلك الرجل الذى أعطانى نصف السيجار ، ويده
مغلولتان بالقيود الحديدية ، بين شرطين من « الكازابنييرى » .
عرفته على الفور ، وخفق قلبى بعنف . وجريت أبحث عن أبى
لأخبره بما حدث ، لكنه لم يكن فى البيت ، ووجدته بعند
ذلك يسقى البقرات . ولا بد أننى كنت مضطرب المظهر جدا ،

اذ أن منظرى أزعجه حتى سألنى ما اذا كان قد وقع شيء فى البيت .

وكان اليوم التالى يوم أحد . وعندما خرجت من الكنيسة بعد القداس ، وجدت أبى ينتظرنى ليأخذنى معه الى وكيل النيابة .

وقال أبى : أخبره بنفسك بالحقيقة . فأنت تعرف الرجل خيرا منى .

وقال وكيل النيابة : لقد قبض عليه متلبسا بالسرقة . فدهشت أعماق الدهشة . كان بوسعى أن أتصوره قاتلا ، لكنى لم أستطع أن أصدق أنه كان لصا .

وحاول أبى أن يفسر الأمر لى : لابد أنه فعل شيئا دعا الشرطة والنيابة لأن تعتقد أنه كان لصا . . ولكن الله وحده يعرف ماذا فعل .

وكان وكيل النيابة طيب القلب ، فأعطانا تصريحاً بزيارة الرجل فى السجن ، وما زلت أذكر أدق تفاصيل هذه الزيارة ، اذ كانت تلك أول مرة أضع فيها قدمى فى مثل ذلك المكان ، نظراً لصغر سننى عندئذ . واقترح أبى أن نأتى له معنا بهدية صغيرة .

فقلت : أحسن شيء أن نأتى له بعلبة سيجار . وأدخلنا السجن الى غرفة عطنة ، وأشار الى فتحة فى الجدار كان مسموحاً لنا أن نحدث السجنين منها . وعرفنى السجنين من أول نظرة .

كان طريقنا ينشعب ، على كل من جانبيه ، الى بضعة أزقة ضيقة ، تصطف عليها مساكن حقيرة ، تتكون فى الغالب من دور واحد . وكانت تعيش فى احدي هذه المساكن امرأة

صبية ، جويديتا ، صانعة السلال • وقد أطلق عليها ذلك الاسم لأنها وأصلت مهنة أبيها في صنع السلال من الخوص ، والسلال الخشبية • ولم تكن تلك مهنة تقيم أود صناعيها ، ولكنها - على أية حال - تحول دون الموت جوعا • وكانت قد تزوجت ، وهى ما تزال غضة السن جدا ، بفلاح لا أرض له ، هاجر الى بنسيلفانيا ، بعد زفافه بقليل ، وفى نيته أن يكسب ما يمكنه من الصودة وشراء قطعة من الأرض ، وبستانا للخضر ، وكرمة أيضا ، اذا كان مجدودا • وبعد أن مرت على جويديتا سنة من القلق واليأس ، وغلبها الفقر ، وغلبها - قبل كل شيء - الخزي لهجران زوجها ، حاولت أن تشنق نفسها • لكنها أنقذت ، فى ظروف غريبة شيئا ما ، اذ مر ببيتها شحاذا من ناحية أخرى فى البلد ، ودخل فى تلك اللحظة بالذات ، يطلب منها كسرة من الخبز ، وخلصها الشحاذا المجهول من الانشودة التى كادت أن تخنقها ، وأرقدها على مرتبة من القش ، ونادى النسوة من الجيران ليعنين بها • ولم يستطع أحد أبدا أن يعرف من هو ذلك الغريب ، ولا من أين جاء ، ولا كيف خطر له أن يأتى يطلب الصدقة فى مثل هذا الزقاق البائس ، فقد اختفى دون أن يترك أثرا •

وقد أثارت جويديتا ، بفعلتها اليائسة ، اضطرابا كبيرا فى القرية ، ومالت النفوس جميعا بالعطف عليها ، ومس تعثر حظها قلوب الناس جميعا مسا وثيقا • ذلك أن مصدر الرزق الرئيسى ، فى هذا الحين ، للعائلات الفقيرة فى ناحيتها تلك من العالم ، كان يأتى من حوالات البريد النقدية التى كان يرسلها الاقارب المهاجرون الى أمريكا • وقد كانت الخطابات الآتية بعلامات بريد فيلادلفيا أكثر بكثير ، فى خفية نيكولا ساعى البريد من الخطابات الآتية بعلامات بريد روما أو ميلانو ، وكان انتظار مثل هذه الخطابات أشنق وأشغل للأذهان ، اذ كانت تأتى أحيانا ، وهى مغلقة ، كما لو كانت تتضمن بقايا قديس ، بأختام كثيرة بالشمع الأحمر • وكان

نيكولاى ساعى البريد يجعل المستلم يوقع على دفتر عنده ، قبل أن يسلمها • واتخذ ساعى البريد ، فى نظر الكثيرين ، دور العم الخير الكريم فى الحوادث والآساطر • وكانت خصاله الدمة ، وطيبة قلبه ، وتدينه ، تتفق وهذا الدور خير اتفاق • وقد كان فى صباه يريد أن يصبح قسيسا ، ولكن المقدرة المالية على استكمال الدراسة كانت تعوزه • ولعل بقاءه عزبا طيلة حياته كان نوعا من الاستجابة لهذا الجافز الدينى فى طبيعته ، وقد كان يومئذ بنفسه الى ذلك أحيانا • وكان بعض الناس يأخذون عليه شغفه بالخمير أكثر مما ينبغى قليلا ، لكنه ، وان سكر ، لم يكن صخابا ولا منفرا • وكان أبى يقول ان فى ساعى البريد عيبا واحدا : كان يؤثر الشراب وحده ، فى البيت ، على الشراب مع الصحاب • لكنه لم يكن ليرفض - مع ذلك - كأسا من النبيذ ، عند تسليم خطاب مسجل •

الا أن الخطابات الآتية من فيلادلفيا لم تكن - لسوء الحظ - تأتى دائما بما يرضى ويسر الخاطر • فقد كانت تنبئ بحوادث تقع فى العمل أحيانا ، بل عرفت بضع حالات - وان كانت نادرة - لم يعن الرجال فيها باقتصاد شيء ما ، لعائلاتهم ، أو كفوا تماما عن الكتابة اليها • الا أن زوج جويديتسا بن الجميع فى غرابة سلوكه • فهى لم تتلق دولارا واحدا منه ، بل لم تتلق أى خطاب اطلاقا ، وان كان من المعروف ، عن طريق القرويين الآخريين الذين هاجروا الى نفس المكان ، أنه كان يشتغل بعمل حسن ، وأنه كان يفاخر بما يرسله للبيت ، بانتظام ، من نقود • وانحل اللغز بعد بضعة أسابيع من محاولة جويديتسا الانتحار • وعندما تسربت الأخبار بأن نيكولاى ساعى البريد اختلس كل الخطابات التى كانت مرسلة باسم المرأة الشقية ، أخذ السكان جميعا بالدهش ، والفرع • ولعل ساعى البريد قد أفلت ، باختفائه ، من الموت على يد الاهالى • بيد أن روع هذا الاكتشاف ظل يحوم حول القرية ، ولم يكن

بوسع أحد أن يكف عن الكلام فيه ، وكان أبى - بعكس المؤلف من عادته - يشارك الناس فى ثورتهم تلك ، ويجد فى ذلك كله تأييدا لقلة ثقته بالسكيرين المستوحدين الفرادى .

وما زلت أذكر أن أبى دعا ضيوفا الى البيت ، بعد رحلة خرجوا فيها جميعا للصيد ، وكان الحديث ما يفتسأ يرتد الى ساعى البريد ، وقد كان هاربا لم يعثر عليه بعد .

وقال أحد الحاضرين لأبى : افتعرض أنك كنت تتعقب أرنباً ، فى أحد الايام ، واذا بك تقع على ساعى البريد فجأة ، ماذا تفعل ؟

فقال أبى ، فى جد : لست أطمئن الى نفسى فى أن أقاوم اطلاق الرصاص عليه .

وكان الضيوف يشربون القهوة ، عندما صدر عن حديقة الخضروات وراء البيت أصوات نقيق الدجاج المضطرب ، وهيجانه .

وقال لى أبى : اذهب لتر ما هناك ، لعله كلب ضال .

وكان يوجد فى الطرف الأقصى من الحديقة ، بين الصف الأخير من صفوف الطماطم المزروعة ، وبين سور الشجيرات النامية على شط النهر ، خندق عميق كنا نرمى فيه ، قبل ذلك ، بالسباح . وكان ساعى البريد يقعى فى الخندق ، كحيوان مذعور . ولم أكن أنكر عليه آثار القنذر ومشاق الهرب البادية عليه ، بل أنكرت فى وجهه تلك النظرة المنهوكة القانطة الخائفة ، فلم أعثر فيه على ذلك العم الخير الكريم الذى طالما ألفت رؤيته ، بطيبة قلبه ، وفرحه ، ودعة جانبه .

وقال : أخبر أباك أننى هنا . . . سأسلم نفسى للكارابنييرى ، ولكن يجب أولا أن أكلمه .

وجريت راجعا الى البيت ، وقد تملكني الذعر . لم أكن أعرف ماذا أفعل . وتمت ببضع كلمات لا رابطة بينها ، وإن كان تأتي لي أن أقول ، إذ كان أبي علي وشك الذهاب الى الحديقة : كان هناك كلب ، ولكنه ذهب الآن .

وضحك الجميع على قلة شجاعتي ، ولما بقيت أرتعش ، ووجهي لا ينجاب عنه الشحوب ، أرسلني أبي الى الفراش لأنام .

وعندما انصرف الضيوف جاء أبي ليراني ، وسألني :

- لم يكن هناك كلب ، أليس كذلك ؟

- لا ..

- من كان هناك ؟

- أنت تستطيع أن تخمن .

- ما زال هناك ؟

- في الخندق ، بالقرب من شجر السرو .

- هل قال شيئا ؟

- قال انه سيسلم نفسه للكارابنييري ، ولكنه يريد أن يكلمك أولا .

وقلت ، بعد فترة :

- هل تقسو عليه ؟

فقال أبي :

- انه ضيفنا الآن .

نيكولا موسكارديلي : (١٨٩٤ - ١٩٤٣)

كان أول كتبه « أغنية روما » يعالج مجالى روما المختلفة المقدس والعلماني منها ، والعتيق والحديث . ووصف الكتاب بأنه من « الصوفية الشاعرية » . ولا يصعب الاهتداء الى تلك النغمات الغنائية فى قصصه القصيرة - ومنها التى نختارها له - ولا تخفى فيها حساسيته الدقيقة المزهفة الانامل . فهو لا يعنى بالحبكة المتقنة ، وعنصر الرواية فى قصصه أدنى أهمية من دراسة موقف أو شخصية ، بل تطريزها .

« ورجه القدر » هى مأساة صغيرة لبراءة مخدوعه - دون أن تعى ببراءتها ولا بالخداع - والقدر مرموز بطبيب أخن يلهج بعبارات الريفية الوقع ، ويلبس نظارة ذهبية الاطار من طراز قديم . والأدوات التى يلعب بها القدر هى محبة أم ، وسذاجة طفلة تسلم مصيرها الغض لمباضع لامعة ، ولعيني أمها الواقيتين الفاهمتين المشاركتين - برغمها - فى مؤامرة ساذجة لا حول لها أمامها ، تافهة وان كانت حبل بالدلالات .

ثم تنتهى لعبة القدر الصغيرة ، بل وتنسى ، ولكنها تترك ندبها الأول لجرح قاطع فى نفس كانت حتى تلك اللحظة صافية النسيج ، ناعمة الجلد . والنسب الأول يرم ويلتشم ، لكنه ارهاص بندوب الحياة المحتومة ، وجراحاتها اللاحقة التى تخبئها للنفوس جميعا . وفى البشر الصغير الأول ترشيح للآلام المشخنة التى هى ميراث الحياة نفسه ، بمجهولاتها ، بآمنياتها النازعة أبدا نحو تحقق لا يدري وأحسد على الإطلاق الام ينتهى ، وكيف تطلع عليه شمس غد مأمول لا ضمانه فيه ، ولا ضمانه له .

وجه القسار

(نيكولا موسكارديلى)

تردد الاثبوان كثيرا ، فقد كانا ينتظران أن يقرأ فى صحف المساء أن التطعيم من الجدري لم يعد ضروريا . ولكنهما أدركا أنه ينبغي أن يتخذا قرارهما ، فى النهاية . فجمعا أشتات شجاعتهما - كانت حياتهما فعلا هي ابنتهما الصغيرة - وذهبا الى الطبيب ليعدا الترتيبات اللازمة .

وقال لها الطبيب ، بصوته الاخن الذى يتميز به رجال الطب ، هذا الصوت المدرب حتى لا ينم عن انفعال ما :

- لا داعى اطلاقا للقلق يا سيدتى . فلنر الآن ، ما اليوم؟ الاثنين؟ عظيم . هاتى البنت يوم الاربعاء ، وأنبويتين من اللقاح . وستظل الطفلة فى حالة عادية طوال نهار الاربعاء ، وليلتها . ولكن راقبها مع ذلك بعناية ، على سبيل الاحتياط فحسب . ويوم الخميس بعد الظهر ترتفع حرارتها ارتفاعا طفيفا ، وترتفع أيضا أثناء الليل . وتظل عند حوالى مائة درجة يوم الجمعة بأكمله . وتنزل الحرارة يوم السبت . ويوم الاحد بالكثير تعود تماما للحالة الطبيعية . فلا داعى للقلق أبدا ، كما ترين . نحن كل يوم نجرى مئات التطعيمات .

وأصغت الأم ، خائفة قليلا ، تحقق فيه ، دون أن يغيب نظرها عن ابنتها التى كانت قد ذهبت الى دولاب ذى واجهة زجاجية ، وأخذت تحقق فى المباشع والمقايض والمشابك اللامعة ، وقد سحرها بهاء هذه اللعب الباردة المصقولة ، واستدار الطبيب لينظر اليها ، وقال :

- لويزيللا ، سترجعين يوم الاربعاء هنا ، مع ماما ، وسأعطيك شيكولاته . تعديني أن ترجعي ؟ أليس كذلك ؟

فرفعت البنت عينيها الى أمها فى ارتباك .
- قولى للدكتور « أشكرك » ، انظرى كم هو لطيف معك .
قولى له انك راجعة يوم الأربعاء .

فهمت الطفلة : نعم !
وأخذتها الأم بين ذراعيها ، وحيث الطبيب ، وخرجوا .
وظلت لويزيللا هادئة يومها - كدأبها فى الأيام الأخرى .
إلا أن شيئاً كان الطبيب قد قاله ، كان يشير فيها الضيق والكرب معا . شيئاً ما ، وكانت تنظر الآن الى الشارع ، الى أولى فوانيس الشارع التى أوقدت ، وكان خيالها البارغ يبنى تخاييل طفلية خلف وهج المصابيح ، كما كان يبنى من قبل خلف انعكاسات الأدوات الجراحية الفضية المغلق عليها فى الدولاب الزجاجى .

ولكن سحابة طفيفة كانت معلقة من الآن فى ذهن أمها وكانت تحتضن بنتها الرقيقة البريئة بعاطفة جديدة لم تكن تشعر بها من قبل .

وفى المساء ، عندما ذهبت معها لتضعها فى السرير ، ظلت جالسة بجانبها ، ترقبها وهي تنام ، ورأت ظلال النوم ، بفروقها الواضحة ، تهبط واحدة بعد واحدة ، كظلال طيور هاربة محلقة ، لا تكاد تنبعث فى الوجه الصغير بتكمش النعاس ، ثم ينفتح الوجه بابتسامة سريعة ذاهية ، ولا يكاد يعتم عتمة خفيفة اذ تغمض عينيها وتنام . وذهبت ضيفا فى عالم شد ما يتباين عن العالم الذى خلقتة ورائها والذى مازال أبواها يقطنانه . وقد كان يمكن أن تكون هى نفسها حلما بين أحلامها . ونهضت الأم ، بغاية الهدوء ، تكاد تحبس أنفاسها ، كما لو كانت تخشى أن يتشتت « الحلم » .

وتسربت الشمس ، فى الصباح التالى ، بين الضلف ، وهي

تقوم بذلك العمل كشخص يقوم بحراسة يومية صامتة ،
ورحبت بها الطفلة بصيحتها الفرحة المعتادة . ولم يكن في
ذاكرتها شيء من اليوم السابق ، وبدأ لها أن حياتها توشك أن
تبدأ بداية جديدة ، ككل يوم . لكن أمها لم يطاوعها قلبها
أن تبترسم كالمعتاد ، إذ كانت سحابة المساء القادم تتزايد ثقلاً ،
وتغيم على ضوء النهار . وعادت الطفلة مرة أخرى إلى عالم
لعبها ، فأخذت تثرثر لهم في هدوء ، دون توقف . وعندما
قالت لها أمها ، وهي خارجة لشراء أنبوبتي اللقاح ، أنهما
تخرجان لشراء حلوى ، وثبتت الطفلة مبتسمة ، ورمت بذراعيها
حول عنق أمها .

وبعد ظهر الأربعاء أخذتها أمها بين ذراعيها ، كما لو كانت
قد تذكرت - هي نفسها - الآن فقط . وذكرتها بالشيكلاته
التي وعدتها بها الدكتور . وكانت الأنبوبتان في حقيبتها ،
وفي قلبها خشية غير قليلة . وتركا البيت الذي كانت تدفئه
أشعة الشمس ، كما تدفئ السطوح والشوارع ، ولكن لا دفء
في قلب الأم . وكانت تتعلق بها سحابة من شعور كالندم ،
الندم لأنها تخدع براءة طفلتها ، وتخونها . وكانت البنت
تنظر لها ، عند كل محطة يقف عندها الترام ، كما لو كانت
تذكرها بأنه ينبغي أن ينزلا . أما الأم فقد كانت تتمنى ، من
الناحية الأخرى ، ألا يصلأ أبدا . وطفقت تتمنى أن تأتي
بضعة شوارع أخرى ، حتى يتاح لها الوقت أن تقنع نفسها
أن لا شيء هناك ، لا شيء بالمرّة .

وقبل أن يمسه الطبيب أخذت الطفلة تصرخ . وكانت أمها
تمسك بها ، تقدم ذراعيها الصغيرة الوردية للطبيب ، لكي
يجري عليها القطوع ، وهي تقول أن لا شيء هناك . وسقطت
الشيكلاته من الطفلة ، في محاولتها أن تتملص وأن تفلت
ولكنها لم توفق . وما أن شعرت بنفسها بين يدي الطبيب
الذي اتخذ الآن مظهرًا غير محبوب بالمرّة ، بالرغم من كلماته

الضحكة ، حتى لم يقف بكاءؤها عند حد ، وكان يبدو أنها لم تكن تعاني من الألم بقدر ما تعاني احساسا بخيانة الثقة التي وضعتها في هذين الكبيرين ، فلم يحفظانها ولم تستغرق المسألة - بالطبع - أكثر من بضع لحظات ، وما أن وصلت البيت حتى استعادت هدوءها . ففعل ذلك حدث كما تحدث هذه الامور في الأحلام ، لا تفسير له ، ولكن لا أهمية له بعد ذلك . وجهدت الأم أن تنسيها هذه الحادثة ، حتى كادت أن تقنع بنتها أنها أيضا قد خدعها الطبيب ، وأنها إنما ذهبا للطبيب لأنه كان يبدو لطيفا . يحب الأطفال ، والآن . . . من كان يصدق ؟

ولكن بقي في عيني الطفلة ظل أو شبهه تقريبا ، لا يسهل تشتيتها . وسرعان ما بهت هذا الظل بعد ذلك ، واختفى ، وعاد سناء الشمس يسطع من جديد في داخل ذهنها الذي استعاد سكينته وسلامه . كانت تجلس على الأرض أمام علبة ضخمة مليئة باللعب من كل الأنواع ، وقد استغرقها لعبها تماما ، فنسيت كل ما عداها . ولكنها كانت تنشج بشهقة بكاء بين الحين والحين ، شهقة لا تتصل بالماضي ولا بالمستقبل . وكانت أمها التي تقف قريبة منها ، ترقبها بعناية من أشعل فتيلة قنبلة وأخذ ينتظر انفجارها . أما الطفلة ، وقد أفرخ روعها الآن ، فقد كانت تسأل أسئلتها ، كالمعتاد ، عن كل ما يدور بأذهان الأطفال وحدهم من أمور محالة غريبة .

- غدا .

أجابتها أمها ، وهي ترتعش قليلا ، وصوتها مغلف بالكذبة التي على شفيتها .

فرددت الطفلة بعدها :

- غدا .

وكانت عيناها لامعتين حتى إن أمها اقتربت منها ، ومرت

بيدها ، كما لو كان ذلك قد جاء اتفاقا ، على جبهة الطفلة
لتحس ما اذا كانت قد ارتفعت حرارتها . ومرت ساعات بعد
الظهر الهادئة ، واحدة بعد الأخرى ، ببطء . وكانت الطفلة
تتحرك ، فى كل ساعة ، لتقترب من العالم المجهول الذى
لم تكن تدري عن وجوده شيئا ، والذى كانت الأم تراه
بوضوح ، كما يرى المرء أعمى يقترب من حافة هوة . ودخل
الليل فجأة ، فى غرفة النوم الدقيقة المؤثثة بأشياء دقيقة
لا فائدة فيها ، والمستضيئة بحياة ألف طيف من الجنيات
الصغيرة دعته اليها كائن على قرابة بها . وجذب السرير
الصغير الذى كانت تنام فيه البنت ، الى الخسارج ، ككل
مساء ، عندما أحست الأم بأرواح الحمى التى تحوم حول
الطفلة ، جاءت فى ميعاد لم يكن بالامكان أن تتخلف عنه ،
والمصباح الذى يتقد كل ليلة سيتقد هذه الليلة ، ككل الليالى ،
تقريبا . وعندما نامت بنتها الصغيرة ، بقيت الأم طويلا
تحدق فيها ، كما لو كانت تحاول أن تعثر على اللحظة التى
يبدأ فيها الصراع بين الجراثيم الخيرة والجراثيم الشريرة فى
جسمها المسكين . وكانت الطفلة تتمتع كثيرا ، خلال الليل ،
بكلمات غير مترابطة ، فى نومها . ورفعت يديها الصغيرتين
أكثر من مرة ، كأنما لتحامى عن نفسها ، وترد غائلة شىء
أو شخص .

وفى الضباح التالى لم تلتق الشمس صنبحة الترحيب
المألوفة ، ونامت الطفلة ، كزهرة لدعها الصقيع فى سريرها ،
تريح وجنتها المشتعلة على المخذة ، وجفناها مسبلان على عينيها
المتمددين بالحمى .

وتحقق تشخيص الطبيب ، خطوة فخطوة ، فظلت حرارتها
ترتفع طوال اليوم ، ويوم الجمعة ظلت مرتفعة من أول الصبح
حتى آخر الليل ، كما تنبأ الطبيب بالضبط . ويوم السبت
صباحا لم يعد لها أثر تقريبا . وتغلبت الطفلة على الحمى يوم

الأحد ، وكان بوسعها أن تنهض يوم الاثنين ، دون أن تتذكر إطلاقاً شيئاً من المرض الذي اجتازته ، واستأنفت حديثها الذي انقطع مع أصدقائها الصغار المصنوعين من شعر الخيل والورق المقوى .

وكانت أمها تشعر بنفسها تعاني دواراً خفيفاً ، من مشقة مراقبة كل مرحلة من مراحل تشخيص الطبيب . كان قد حسب حساب كل شيء ، بدقة تروس الساعة ، باليوم ، بالساعة ، حتى هبوط الحرارة والشفاء النهائي . ولكن الطفلة حتى عندما كانت قدماها على حافة الحمى ، كانت تردد كلمة « غدا » في سلام وسكينة ، وقد أمنت تماماً ، وسعدت . وسقطت في الهوة ، غير واعية بشيء إطلاقاً ، وبابتسامة على شفيتها .

وبينما كانت أمها تجلس الى حافة المائدة ، تدفن وجهها بين راحتي يديها ، كانت تواجه اللغز ، كشخص مبصر بازاء أعمى ، لكنها أيضاً كانت تحس بنفسها عمياء ، وقد اختلط عليها الأمر ، غير عارفة ، على حافة هوة مجهولة ما . وتقف معها كل الكائنات المخلوقة التي تقول « غدا » دون أن تعرف أبداً ما اذا كان الغد سيشرق عليها . ورأت ، كما ترى في المرأة ، المصائر الإنسانية تنسجها يد غير مرئية ، وسمعت ساعة تدق في جلال ، تأتي بأحزانها المظلمة ، أو أفراحها غير المنتظرة .

وكانت الأم والبنت صامتتين هنيهة في الغرفة الصغيرة . ثم أخذت الطفلة تؤرجح دميتهما ، واستأنفت خيط حياتهن البسيط الذي لا تعقيد فيه .

وعادت الأم بذهنها الى الطبيب ، وأحست أنها كانت أمام القدر وجهها لوجه . وكان يرتدى نظارات ذهبية من نوع لم يعد شائع الاستعمال اليوم ، وله لحية خشنة ضاربة الى الأحمرار ، ويتكلم بلهجة صقلية خفيفة .

جيو فاني بايني :

ولد في فلورنسا سنة ١٨٨١ . وقضى معظم حياته فيها ،
الا أنه - في كثير من النواحي - أكثر الأدباء الإيطاليين اليوم
اهتماما بالمشاكل العالمية التي تعدو نطاق الإقليمية . وقد
اعتنق الكاثوليكية قبيل كتابته « قصة المسيح » في سنة
١٩٢١ . ثم أصدر أخيرا كتابه « الشيطان » الذي أثار
الدوائر الكاثوليكية ، وحظر البابا قراءته على المؤمنين .

وقد ارتبطت أعماله بالصحف الذائعة الصيت في فجر
نشاطه الأدبي ، واسترعى الانتباه - قبل الحرب العالمية
الاولى - كتابه « رجل منته » حيث يبدو فيه جزعه من العمى ،
وهو جزع أصبح حقيقة واقعة ، بالتقريب في سنة ١٩٣٥ .
وبالرغم من ذلك ، وبالرغم من عاهة في ذراعه اليمنى ، فقد
واصل عمله في الكتابة النشيطة التي لا تنهون ولا تخور .

وأكثر اهتمامه بالمسائل الانسانية القائمة أبدا ، لكن
الجانب الشعري الخفيف من موهبته الخلاقة يبدو في
مجموعات قصصه القصيرة .

وتنعكس في القصة التي نختارها له أطراف بعيدة لاهتمامه
بالمثيولوجيات والتخايل ، واحساسه مع ذلك بعنصر فاجع
لا مفر منه في رغبات الإنسان المحكوم عليه حتما بالفناء ، وقبل
ذلك بالشيخوخة وذبول الأسباب ، وفي نزوعه الدائم الى
المتعة ، والازدهار ، برغم التجاعيد في وجهه ، والتجاعيد التي
يتقبض بها نسج روحه الداخلي أيضا ، وفي حبوطه المقضى عليه
به في النهاية ، اذ تتساقط بين أصابعه المرتعشة بالإشتهاه
أوراق حياته الداوية المميتة .

اليوم الذى لم يسترد

جيو فاني بابينى

لى ، من بين معارفى ، كثير من الاميرات اللاتى تقدمت
بهن السن وان لم تنل من جمالهن . ولكنهن يعشن فى ضائقة
مالية ، حتى ليغبطن أنفسهن اذا استطعن الحاق خادمة ،
ترتدى حلة رسمية سوداء ببيوتهن . وقد دفعتهن الحاجة الى
سكنى فيلات متداعية فى توسكاني مثلاً ، فى إحدى تلك
البلاد القاصية ، تقف ، للحراسة ، على بابها المنقور فى
الصور ، سروتان يعلوهما الغبار .

فاذا صادفت أحد أفراد هذه الفصيلة فى صالون كونتيسة
أرملة قد خلفتها الأيام ورامها ، فعليك أن توجه اليها الحديث
بوصفها « صاحبة السمو » ، وأن تتكلم بتلك الفرنسية التى
تنتمى الى الطراز الدولى ، الكلاسيكى ، الذى لا كون له ،
فرنسية « القصص الأخلاقية » للأب مارمونتيل ، أى فرنسية
الطبقة الراقية . وسوف تجيبك هاته الاميرات - بلا شك
تقريباً - فى اسهاب محبب دمث ، ما دمت قد سلكت سبيلك
الى قلوبهن البائسة المليئة بالتراب وبفضول الحواشى ، كأنها
خطب القرن السابع عشر ، وسوف تجد عندئذ أن الحياة ،
حتى على هذا النمط ، يمكن أن تكون مقبولة ، وأن أمهاتنا
لم يكن بما يبدو من الغباء لانهن أتين بنا الى هذا العالم .

وكم من أسرار غريبة همست بها أميراتي الشقيقات
الجميلات ، فى أذنى . وكن لا يفتان يذرن البودرة على
وجوههن ، فهن يعشن ذلك ، ويعشن أكثر من ذلك أن
ينطلقن فى ثرثرة طويلة ذات شجون ، بلا هدف ما . وهن
ألمانيات الاصل جميعاً - إلا واحدة من أصل روسى ، كما
لو كان ذلك قد جاء عرضاً - ولكن فرنسيتهن الممتعة التى

أرجع للعهد القديم مسست نفسي أكثر من مرة . وقد ذاب قلبي ، في مثل تلك اللحظات ، وكان من الممكن - عندئذ - أن أروح أصعد التهنيدات والزفرات ، كما لو كنت فتى عاشقا أضواء الهيام .

كنت ذات مساء ، ولم يتأخر الوقت بعد ، في غرفة استقبال باحدى الفيلات في توسكاني . وكنت جالسا في مقعد مريح من طراز الامبراطورية بالقرب من المائدة ، وأكواب الشاي الخفيف تنهال علي ، وأنا أشسارك آحدى أميراتي الصمت . وكانت من أروع أميراتي جمالا ، وأكثرهن طعونا في السن .

كانت ترتدى السواد ، وكان وجهها مغطى بقناع أسود خفيف . وكان شعرها ، وقد كنت أعرف أنه أشيب ، وان كان مازال فيه شيء من التموج الطفيف ، مغطى بقبعته السوداء . وثم هالة سوداء تحيط بها ، فتحيرني وتأسرني ، وتكاد تغريني بأن هذه السيدة ليست الا شبحا لم تظهره الا ارادتي وحدها . ولم يكن في ذلك من الغرابة بقدر ما يبدو ، فقد كانت الغرفة معتمة جدا ، ولم تكن الشمعة الوحيدة تمد وهجها فيما وراء المذرور من البودرة . أما كل شيء فيما عدا ذلك ، فقد كان يندغم في العتمة ، حتى خيل لي أنني أرى رأسا مهتزة ، وحدها ، أمامي ، ووجهها منفصلا عن جسمه ، يطفو على بعد متر واحد من الارض .

لكن الاميرة كانت قد بدأت بتكلم ، فتشتتت بذلك كل تلك الاوهام ، وقالت ، بالفرنسية :

- يا سيدي ، اصغ الى . حدث لي منذ أربعين عاما ، عندما كنت من غصوبة السن ، بما كان يتيح لي الحق في أن أبدو بما يروق لي من مظاهر الحماسة والجنون .

وأخذت تروي لي ، بصوتها الجذاب ، احدى قصصها الغرامية

اشئى لا عداد لها . وقد استعجال أحد الجنرالات الفرنسيين
- فى تلك القصة - ممثلا من حبه لها ، وقتله فلاح مجنون
ذات ليلة .

وكننت قد ألفت منها شطحات الخيال هذه ، وكننت أصبر الى
سماع شئ آخر أكثر اغراقا فى الخيال ، وأكثر بعدا عن الواقع
وامعانا فى الغرابة . ورضيت الاميرة فى النهاية بأن تلبى طلبى
.. وقالت .

- أنت تدفعنى اذن لان أخبرك بسرى الاخير ، سرى الذى
لم أفشه لاحد حتى الآن ، اذ هو أغرب من أن يصدق ..
ولكنى أعرف أننى سأموت فى خلال شهور قليلة ، قبل أن
ينقضى اشتاء ، ولست أظن أننى سأجد من تشوقه كل هذه
التفاهات خيرا منك .

يعود هذا السر الى العهد الذى كنت فيه فى الثانية
ولعشرين من عمري .. كنت عندئذ أروع أميرات فيينا جمالا ،
ولم أكن بعد قد قضيت على زوجى الاول .. فقد حدث ذلك
فيما بعد - بعد سنتين - وكننت قد بدأت عندئذ فى الواقع
أهيم حبا ب .. ولكن فلندع ذلك الآن .

حدث اذن فى نهاية السنة الثانية والعشرين من عمري
أن تلقيت زيارة من سيد كهل ، خليق الذقن ، يضع على
سترته نياشين كثيرة ، وطلب منى أن أنفرد به خاضعة
لمدة دقيقتين . وعندما أجبتة الى طلبه قال :

- ان لي ابنة أعبدتها ، وهى مريضة فى اللحظة لإراهنه ،
ويتحتم على - بآى شكل - أن أمنحها حياة جديدة وقوة جديدة
.. ولذلك فعلى أن أشتري لها ، أو أقترض لها ، بضائع
سنوات من الشباب ، فاذا تكرمتم بأن تعطينى سنة واحدة
من حياتك ، فسوف أردتها إليك شيئا فشيئا ، يوما بيوم ،

قبل أن تنتهي أيامك . . فعندما تستكملين سنتك الثانية والعشرين ، ستجدين نفسك بدلا من الانتقال الى السنة الثالثة والعشرين ، قد أصبحت أكبر عمرا بسنة واحدة ، فتبدأين سنتك الرابعة والعشرين . وأنت مازلت غضة السن جدا ، ولن تكادى تشعرين بتلك الوثبة في الزمن . ولكنى سأرد اليك - في النهاية ، أيامك الثلاثمائة والخمسة والستين بأكملها ، يومين أو ثلاثة في كل مرة ، وعندما تتقدم بك السن ، سيكون بوسعك أن تطالبي - كلما عن لك - ببضع ساعات ثمينة من الشباب الحقيقي ، حيث تعود اليك - على غير انتظار الصحة والجمال ، ولا يدخل في بالك أنك تكلمين مجنوناً أو أحمق . فلست إلا أبا يائسا وقد صليت الى الرب وتضرعت اليه ، فمنحني القوة أن أعط ما هم يعط لآخر ، وقد جمعت ثلاث سنوات لابنتي بمجهود كبير ، ولكنى مازلت بحاجة الى بضع سنوات أخرى . اعطني سنة من حياتك ، ولن

ولم أكن في تلك الايام غريبة عن المغامرات الطريفة ، ولم يكن ثم ما يعد مستحيلا في ذلك المجتمع الامبراطوري الذي كنت أعيش فيه . . ولذلك رضيت بأن أعقد هذا القرض الغريب . وبعد بضعة أيام تقدم بي العمر سنة كاملة ، ولم يكذ يلاحظ أحد شديتا على الاطلاق . وعشت حتى بلغت الاربعين حياة سعيدة ، دون الالتجاء الى تلك السنة التي أعطيتها على سبيل الوديعة على أن تسترد فيما بعد .

وكان لسيد الكهل قد ترك لي عنوانه مع العقد ، وطلب مني أن أكتب له شهرا على الاقل قبل الميعاد ، كلما أردت يوما أو أسبوعا من الشباب . وقد قطع على نفسه العهد أنني سأتلقي كل ما أطلب من ذلك في الميعاد المضروب .

وعندما انقضت السنة الاربعون من حياتي ، وأخذ جمالي يندوى ، اعتكفت بعيدا عن العالم في إحدى بقاع القليلة التي

بقيت للعائلة ، ولم أكن أذهب إلى فيينا أكثر من مرتين أو ثلاثا
في السنة . فكننت أكتب أولا إلى مديني ، ثم أنطلق إلى حفلات
البلاط الراقصة في صالونات العاصمة ، يانة السن جميلة ،
كما كنت في الثالثة والعشرين . . حتى دهش كل من كان
قد عرف انحدار جمالي إلى الذبول .

وكم كانت غريبة تلك الليالي قبل عودتي إلى الظهور . .
كان يأخذني اننوم مجعدة ذابلة ، ثم أصبحو في الصبح
مرحة طائرة اللب من الفرخ ، كعصفور لم يكدي تعلم الطيران ،
ثم أجرى إلى المرأة وقد اختفت كل الغضون من وجهي ، وعاد
جسمي طريا لدنا ، واستعاد شعري شقرته ، وشفيتاى لونهما
القاني ، حتى لا كاد أن أقبلهما أنا نفسي في وله .

وكان المعجبون بي في فيينا يفقدون رشادهم من الهيام بي ،
كل بدوره ، ويعجبون للمعجزة ، وكانوا يتهمونني بانسحر . .
ولم يكن بوسعهم بالفعل أن يدركوا شيئا مما يحدث . .
ولا تكاد فترة الشباب التي طلبتها تنقضي ، حتى أكون قد
أخذت عرتي وعدت إلى القلعة على عجل ، حيث كنت أرفض
الزيارات بلا استثناء . . وفي مرة من المرات ، كان كونت
شاب من بوهيميا قد هام بي وجدا في إحدى زياراتي لفيينا ،
واستطاع أن ينفذ - بشكل ما - إلى الجناح الذي كنت أشغله
في القلعة . . وعندئذ أغمر عليه تقريبا من الدهش ، إذ رأى
كيف كنت أشبه حبيبته ، وكيف كنت مع ذلك ذابلة ، وقد
رث شبابي بالقياس إلى تلك التي أسرت ليه في شوارع فيينا .

لكن أحدا لم يستطع أبدا بعد ذلك أن يقطع على عزلتي
المختارة ، التي لم تكن تؤنسني فيها إلا تلك البهجة الغريبة ،
والكتابة العميقة ، التي إمتازت بهما فترات الشباب النادرة ،
في انحداري الفاجع الذي لم يكن شيء ليوقفه نحو الشيخوخة .
حاول أن تتصور الحياة الغريبة التي كنت أحيهاها ، شهورا

طويلة من الشيخوخة الموحشة تدفئها نيران لا يام قلائل ثمينة
سرعان ما تخبو من اجمال والهوى .
وقد كذبت تلك الايام الثلاثمائة والخمسة والستون ، في اول
الامر ، تمدو زادا لا ينفد ، وخيل الى أنها لن تنتهى قط ،
فأسرفت في تسيير كنزى ، وأكثرت من مطالبة مدينى الغريب .
لكنه كان دقيقا كل الدقة - بشكل مخيف - وقد ذهبت مرة
الى ببتة ورأيت دفاتر حساباته ، فلم أكن الوحيدة التى عقدت
معه عقد من هذا النوع ، وأدركت كيف كان يراجع ديونه
بغاية التدقيق ، ورأيت ابنته أيضا . . امرأة شديدة الشحوب
تجلس على الشرفة تحبب بها الزهور .

و لم أستطع قط أن أكتشف طريقته فى الحصول على الحياة
التي كان يردها - على الفور - أقساطا يومية ، وان كان لدى
ما يدعوا المظن بأنه كان يعقد قروضا جديدة . . كيف كان حال
النساء اللاتي أعطينه تلك الايام التي كان يردها لي ؟ . . كم
كنت أحب أن ألقى أحدهن . . لكنى ، بالرغم من أسئلتى
الكثيرة المتتوية الماكرة ، لم يقع فى حظى أن أعثر على
واحدة منهن ، ولعلهن لسن من الغرابة بقدر ما أظن .
وكيفما نظرت الى المسألة ، فان هذا الرجل شائق الى حد
غير مألوف ، وهو فقي كل التوفيق فى حساباته . ولن تستطيع
أن تتصور كيف أضحت حياتى مروعة ، اذ أعلنى ذات يوم ،
فى هدوء أصحاب البنوك ، أنه لم يبق لي الا أحد عشر يوما .
و لم أطلبه - خلال تلك السنة بأكملها ، بيوم واحد . بل
كادت تغرينى فكرة أن أمنحه الاحد عشر يوما هدية حتى أضع
نهاية لعذابى . وبوسعك أن تفهم السبب . ففي كل مرة كنت
أسترد فيها شبابى ، كانت لحظة اليقظة أفعل عذابا ، اذ أخذت
الشقة تنزداد - بمرور الزمن - بين حالتى العادية ، وبين حالى
فى الثالثة والعشرين من عمري . ولم يكن بمقدورى المقاومة .

كيف تتصور أن امرأة عجوزا وحيدة تعسة بوسعها أن ترفض مهلة يوم أو يومين من الجمال والحب ، من الفتنة والبهجة ، إذ تسنح لها الفرصة ؟ .. أن تكون محبوبة يوما وإحداً مشتهاة لساعة واحدة ، سعيدة لحظة واحدة .. لكن السن لم تتقدم بك بما تدرك معه مثل هذه النشوة .

لكن احتياطي الأيام قد استنفد الآن تقريبا ، وحسابى على وشتك أن بغلق حتى الأبد . تصور . يوما وإحداً فقط أطلب به ، ثم أمسى عجوزا إلى الأبد ، مقضيا على بالموت . يوما وإحداً من الضوء ، ثم يأتي الظلام الأبدى .. اعتبر ، أرجوك ، كل مأساة حياتي غير المنتظرة .. وقبل أن أطلب بذلك اليوم ..

متى أطلب به ؟ وماذا أفعل به ؟ .. اننى لم أظهر فى فيينا فى قناع شبابى ، منذ أكثر من ثلاث سنوات ، ولم يعد أحد بذكرنى تقريبا . وسوف يبدو جمالى شبعا من الماضى .. لكنى أتوق إلى عاشق . عاشق لا تردعه الاعتبارات السخيفة . عاشق مضطرم بالهوى ، أتوق لأن يحتضننى أحد مرة أخرى . وسوف يصبح هذا الوجه المغضن طريا موردا مرة أخرى ، وتشرب شفتاى من النشوة للمرة الأخيرة . شفتاى البائستان المشققان وقد نضب الدم منهما ، كم تشبهان أن تعودا قانيتين مرة أخرى ودافئتين يوما آخر أيضا ، يوما وإحداً فقط ، للعاشق الأخير ، للقبلة الأخيرة .

لكنى لا أستطيع أن أعقد عزمى . ليست لدى القوة لانفاق تلك العملة الصغيرة الأخيرة من الحياة الحقيقية الباقية لى .. ولا أعرف . كيف أنفقها ، وبى مع ذلك رغبة مجنونة فى إنفاقها .

يا للاميرة البائسة العزيزة آ وقد رفعت الآن قناعها الخفيف ، وشقت دموعها خطوطا رقيقة فى خديها المذرورين بالبودرة ، وقد غصت بدموعها .. لكنها خيستها ، فقد

كانت أكثر أرسقراطية وأكرم محتدا من أن تطلق العنان لعاطفتها ، فحالت الدموع دونها ومواصلة الحديث • وعندئذ أحسست بحافز لا يقاوم فى أن أسكن من روع هذه السيدة العجوز الفاتنة ، مهما كان الثمن ، وركعت تحت قدميها - أجل تحت قدمي أميرة مفضنة أوجه ترتدى إلسواد - وأخبرتها أننى أحببتها أكثر من أى سيد آخر هام بها حبا فى أى وقت مضى ، وضرعت لها بأكثر ألفاظي المعسولة غواية أن تمنحنى أنا وحدى يومها الاخير من الشباب الباهر •

ولست أذكر بالضبط كل ماقلته ، ولكن كلماتي لاشك لامست قلبها ، فقد وعدتني - وان كان ذلك فى لغة مسرحية - بأن أكون عاشقها الاخير ، ليوم واحد ، بعد شهر من ذلك التاريخ • وحدثت يوما ، فى نفس الفيللا ، وغادرتها فى أشد الاضطراب بعد أن قبلت يديها الرقيقتين البيضاوين • وفى طريق عودتي الى المدينة ، فى ضوء الهلال البازغ ، أطلقت العنان لامتحان نفسي امتحانا صارما ، وتكشفت دوافعي ومنازعي ، فى نوع من الشفقة الساخرة المفتعلة ، ولكنى كنت أحفظ قدر أميرتي بأكثر مما يتيح لى أن أصدق كلمة واحدة من روايتها •

ومر الشهر طويلا لا ينقضى ، أطول شهر فى حياتي ، وقد كنت وعدت حبيبتي المستقبلية ألا آتى أطلبها الا فى نهاية اليوم الموعد ، واحتفظت بوعدى • وجاء اليوم ، بالرغم من كل شيء ، أطول يوم فى ذلك الشهر الطويل • وأتى المساء أخيرا ، وبعد أن اتخذت هندمى كأحسن ما أستطيع ، اقتربت من الفيللا بقلب خافق وبخطوات مترددة •

ورأيت على البعد أن النوافذ مضاءة كلها ، على نحو لم أعهده أبدا من قبل ، ورأيت البوابة مفتوحة عند اقترابى ، وأنشرفة مزدانة بزهور ضخمة • ودخلت الفيللا ، ومررت بغرفة

الاستقبال حيث كانت الشموع كلها مضاعة في شمعدانين غريبين .

ودعيت، للانتظار ، فانتظرت ، ولم يأت أحد ، وكان البيت كله ساكنا الآن ، لا نائمة ولا حس . وكانت الانوار ماتزال تضطرم ، ، الازهار تنفث عبقها في الوحدة . وبعد ساعة من الانتظار والتوتر لم أطق كبح جماح نفسي ، فدخلت غرفة الطعام .

كانت المائدة معدة لشخصين ، محملة بسرف من الاطعمة وانفواكه والازهار ، ونفذت الى صالون صغير ، يشيع فيه ضوء خافت مهجور ، ثم أتيت أخيرا الى باب كنت أعرف أنه باب غرفة نوم الاميرة ، فطرقته مرتين أو ثلاثا لكنني لم أتلق ردا . فظننت أن للعاشق الحق في امتيازات خاصة ، وأن لي أن أستغنى الآن عن الاتيكيت المألوف ، واستجمعت شجاعتي وفتحت الباب ، وتوقفت على العتبة .

كانت الغرفة غارقة في فيض من الملابس الباذخة ، منشورة في كل مكان ، كما لو كانت في اثر نوبة غاضبة من النهب والسلب . وكانت أربعة شمعدانات تلقي ضوءاً قويا غير ثابت . وكانت الاميرة ترقد بطولها على كرسي مريح أمام المرأة ، ترتدي رداء من أكثر أردية المساء التي رأيتها في حياتي فخامة وترفا . وناديتها فلم تجب . فاقتربت ولمستها فلم تتحرك . وعندئذ لاحظت أن وجهها هو نفس الوجه الذي طالما رأيته ، أصفر ، وأكثر حزنا عن المألوف ، وبه شيء من الذعر . وضعت يدي على شفتيها فلم أحس بنفسها . ووضعت يدي على صدرها لكن قلبها لم يكن يخفق . كانت الاميرة البائسة قد ماتت . ماتت في هدوء ، على غرة ، وهي تنتظر أمام المرأة عودة جمالها .

ووجدت خطابا على الارض بجانبها ، يفسر سر نهايتها غير

المنتظرة ، وقد كانت به بضع سطور مكتوبة بخط عسكري منتصب :

« أميرتى العزيزة

شدد ما يؤسفنى أن ليس باستطاعتى أن أرد لك على الفور ذلك اليوم الأخير من التسبب الذى أدين لك به • فلست أستطيع أن أجد اليوم نساء من الذكاء بحيث يصدقن وعودى الغريبة • وابنتى فى خطر •

اننى أقوم بمحاولات أخرى وسوف أنبئك بالنتائج ، فأنت تعرفين رغبتى المخلصة فى ارضائك حتى النهاية • وأرجو يا أميرتى المبجلة أن تصدقينى •

المخلص •••

وكان الامضاء غير موجود •

لويجي بيراندللو

ليس بيراندللو بحاجة الى التعريف . وقد كانت حياته ، قبل أن يعين في الاكاديمية الايطالية ، وقبل أن يحصل على جائزة « نوبل » ، حياة موحجة تحيط بها الفواجع فتتعقب أيامه ولياليه دون مهلة ، والفقر والجنون ومحاولات الانتحار والمرض ودخول الدير والموت والعاهات والفظاعة والوقوع في الأسر ، كلها صاحبته ورافقته بين أفراد أسرته الحميمة . وقد كان يعمل مدرسا للادب في معهد الدراسات العليا بروما .

وكتب الى جانب قصصه القصيرة التي تزيد على الاربعمائة ، نحو عشر روايات ، وله فصوله النقدية الكثيرة . وأروع أعماله بالطبع هي مسرحياته الاربعون التي تقف صروحا شامخة ، ومعابد تدور فيها قصة حياة الانسان . وهي وان كانت كوميديات الا انها ليست مسلية .

« ان لبعض الكتاب شعورا أعمق باحتياج روعي لا يدعهم يقتنعون بالصور والاحداث والمشاهد ، فلا يقفون عند معنى محدد خاص من معاني الحياة . ولهم نزعة أقرب الى أن تكون فلسفية . وانا لسوء الحظ من هؤلاء - من هؤلاء الذين ، في الصورة المحسوسة التي يجب أن تبقى حية تتمتع بكل حريتها الخاصة ، انما يبحثون في صميمها عن معنى آخر يكسبها قيمة ومغزى »

فهذا الانتاج الضخم اذن بحث مستمر لاستجلاء الدلالات . وبيراندللو سيد لا منازع من سادة فنه ، أو فنونه جميعا . وأصداء الفواجع التي عجنت بها حياته نفسها هي أصداء الفاجعة الانسانية الكلية ، ولكن له فيها بسماته ، وأفراحه ، وعزائمه ، ورفق بالانسان ورحمة بضعفه ، وله نشدانه الذي لا يفتر للقيمة ، والمعنى .

وعبثاً أن نجمع شتات مقومات أعماله في عبارات قصيرة ،
مهما كانت موحاة • فهو من الشيكسبيريين القلائد الذين تكاد
تمتد أجنحتهم العريضة على كل أطراف المسرح الانساني
فيطورن تحتها كل أصناف الشخصوص ، والمواقف •

وراء براعته الفنية الفائقة حدوسه المستبصرة الوضاعة
النافذة ، ومع نضوجه الشيخى الجليل شاعرية فتية رقراقة
وقد اخترت له قصتين ، لا تمثلانه كله قطعاً ، وإنما يستبين
فيهما - فتط بضعة من جوانب سنيادته الفنية •

وليست « جنون القمر » مجرد حكاية طريفة عن الريف
الايطالى ، بل فيها صلة بتلك القوى الغائرة في عمق الطبيعة
حتى لتوشك أن تصبح غيبية ، وحتى نعود فنحس بالسحر
الاسطورى البدائى والالغاز الرئيسية الجوهريّة التي تنبع عن
النفوس وموقفها من العالم ، تلك القوى الغامضة المظلمة التي
ألهاها الناس حيناً ، وما تزال تتمتع في كوامنهم بسطوة الالهة

وفى وسط الازمة الكونية تجرى نزعات الناس الصغيرة
مجراها الصغير المألوه • وتنعقد صخرة موقفهم المعتاد
و « الليل » قصيدة أخرى « أبياتها من الامانى المحبوبة ،
والمصائر المتحيرة ، والعزاء الكونى •

الليل

(لويجي بيراندلو)

مر القطار بمحطة سولونا ، وبقي سيلفيسنترو نولي وحده
في تلك العرببة الحقيرة من عربات الدرجة الثانية .

وألقى بنظرة أخيرة نحو الشعلة المدخنة المرتجفة التي تكاد
تطفئها ، عند كل هزة من هزات القطار ، قطرات الزيت التي
تسقط فتكدر زجاج الوقاية المحذب المحيط بها . ثم أغمض
عينيه ، مؤملا أن ينام بعد هذه الرحلة الطويلة المجهدة (فقد
كان الرجل يسافر منذ يوم وليلة) ، فينزع عنه هذا الحصر
الذي يكاد يخنقه ، ويتزايد وطؤه عليه كلما اقترب القطار من
منفاه .

أبدا . أبدا . أبدا . منذ كم من الوقت كانت عجلات القطار
الرتيبة الوقع تردد في أذنيه هذه الكلمة ، طول الليل ؟

انتهت ، انتهت الى الأبد حياة شبابه المرححة بين رفقاءه الخلي
البال ، تحت الاقباء المزدحمة ، في « تورين » الحبيبة ، انتهت
هذه الانفاس الدافئة المألوفة التي يهب بها بيتهم القديم ، انتهت ،
ما كانت تكفله له أمه من رعاية ومحبة ، وذلك الحذب الباسم
في نظرة أبيه الواقية .

لعله لن يراهما بعد الآن أبدا ، هذين الشيخين الحبيبين .
أمه ، أمه ، على الاخص . آه . كيف وجدها بعد سبع سنوات
من الغيبة ، محنية الظهر ، مقددة ، يحيط بفمها الفاجر من
أسنانه شحوب كشحوب الشمع . ولم تبق إلا العناية بحيويتها
هاتان العينان المستكينتان الطاهرتان الحلوتان .

كان ينظر الى أمه ، وينظر الى أبيه ، ويصغي لحديثهما ،
ويلف بحجرات البيت ، ينقب في كل شيء ، فأحسن ان الحياة

فى بيت أبويه قد تغيرت بالنسبة له وحده ، ومنذ رحيله ، من سبع سنوات ، توقفت الحياة هنا ، وازدادت دكنتها أيضا أخذها معه اذن ؟ وماذا فعل بها ؟ أين اختفت هذه الحياة التى لم تعد تنبض فيه ؟ ربما ظن الآخرون أنه أخذها معه لكنه هو ، يعرف بالعكس أنه خلفها وراءه ، عند رحيله ، وهو لم يعد يجدها الآن ، ويقر بأنه لن يستطيع أن يجدها بعد الآن ، اذن فقد حمل معه كل شيء . . . وعندئذ أحس فى هذا الخواء ، رجفة مميتة .

وبهذا القلق الذى يخنق قلبه ، عاد الى مقر وظيفته ، عند نهاية أجازة الخمسة عشر يوما التى صرح له بها مدير المدرسة الثانوية للبنين فى مدينة سانت أنجلو ، حيث يعلم الرسم ، منذ خمس سنوات .

وقد كان قبل ذلك أستاذا فى كالأبريه ، سنة ، وفى بازليكاتا ، سنة أخرى . أما فى سانت أنجلو ، وقد هزمته وأعمته ، حاجته الكاوية الجنونية لعطف يملأ الفراغ الذى يحس نفسه ضائعا فيه ، فقد اقترب حماسة الزواج ، فربط نفسه الى الأبد بتلك البلدة .

فقد ولدت امرأته ، ونشأت فى هذه البلدة الصغيرة الجبلية الرطبة ، المحرومة من كل الرفاهيات ، بين الانحياسات والتعصبات الصغيرة الضيقة العمياء ، والتفاهات وغرائب المزاج ، وانسياب الحياة الرتيبة الخاملة فى الريف : وبدلًا من أن تغدو زميلته ورفيقته كانت تزيد من مضض ووحشته ، بأن تشعره ، فى كل لحظة ، بمدى غربته عن هذه العائلة التى كان ينبغي لها أن تكون عائلته ، والتى لم يتح فيها لآية فكرة من أفكاره ، ولاى شعور من مشاعره ، أن ينفذ اليها أبدا .

وولد له طفل ، وشعر - شعورا قتلعا بشعا - بأن هذا

الصغير أيضا ، من أول يوم ، غريب عنه ، كما لو لم يكن ينتمى إلا الى أمه وحدها .

ربما أصبح الطفل ولده حقا لو أنه استطاع انتزاعه عن هذا البيت ، عن هذا البلد ، وربما أصبحت زوجته نفسها زميلته حقا عندئذ ، ولعله يعرف عندئذ بهجة أن يكون له بيته ، ومقره ، لو أنه استطاع أن يطلب نقله من البلد ، إذ أن زوجته - التي لم تنشأ أن تغير بلدها حتى في رحلة صغيرة في شهر العسل ، حتى لكي تتعرف الى أمه وأبيه وأقاربه في تورين - قد هددت بأنها تهجره ، ولكن لا تهجر أهلها .

ومن ثم فقد كان ينبغي أن يبقى ، وينتظر ، في هذه الوحدة المخيفة ، أن تستنيم روحه الى خمول كثيف .

وكم كان يحب المسرح ، والموسيقى ، والفنون جميعا (لم يكن ليعرف أن يتكلم عن شيء آخر ، ولذلك فقد ظل دائما يهيجه هذا العطش الذي يحرقه ، كعطشه أيضا الى قدح من الماء النقي . لا . انه لا يستطيع أن يشربه ، هو ، هذا الماء الثقيل ، البارد ، الرمل ، ماء الآبار . وهم يقولون هنا انه غير ضار ، لكنه يعانى ، منذ وقت ليس بالقليل ، من آلام المعدة . أو هام ؟ نعم . حتى السخرية به أيضا ، علاوة على كل شيء .

ولم يستطع جفناه المغمضتان أن يحتجزا الدموع التي فاضت بهما . وعض على شفتيه ، حتى يحول دون انبعاث شهقاته أيضا . وأخرج منديله من جيبه .

لم يكن ليظن أن وجهه قد غطاه الدخان من رحلته الطويلة ، وعندما رأى المنديل أحنقته وغازطه وصمات دموعه السوداء . ورأى في هذه الوصمات صورة حياته كلها . وأخذ المنديل بين أسنانه ، كما لو كان ليمزقه .

وتوقف القطار أخيرا في محطة كاستلماري ادرياتيكو . وفي مقابل العشرين دقيقة الاخيرة من السفر ، كان يتعين

على القطار أن ينتظر أكثر من خمس ساعات في هذه المحطة .
ذلك هو المصير الذى يلقي المسافرين فى هذا القطار الليلي
الآتى من روما فى اتجاه أنكونا وفوجيا .

وقد كان فى المحطة ، لحسن الحظ ، قهوة مفتوحة طول
الليل ، كبيرة ، حسنة الضوء ، والمفارش على مواثد لها . وكان
بالوسع ، بفضل هذا الضوء وهذه الحركة ، أن يحتمل المرء
بطالة الانتظار الطويل وكآبته . ولكن وجوه المسافرين المتورمة
الشاحبة المغبرة المجهودة يرتسم عليها ضجر كدر ، وضيق
كاتم للنفس ، وغثيان رهيب عن الحياة التى تتكشف للجميع ،
بعيدة عن المحبات المألوفة وعن العادات الرتيبة ، خاوية ، بلهاء ،
سفيهة وحزينة .

ولعلمهم كثيرون أولئك الذين أحسوا بقلوبهم تنطبق عند
صفير القطار النائح الذاهب فى الليل يتبع طريقه . يمسى
الواحد منهم مهموما يفكر فى أن المتاعب الانسانية لا راحة منها
قط ، حتى فى الليل ، اذ هى تظهر لنا ، فى الليل خاصة ،
لا جدوى فيها ، مجردة من أوهام الضوء ، وبسبب هذا الحرج
القلق الحصرى الذى لا قرار فيه ، والذى يقبض على نفوس
المسافرين فيدعها معلقة متأرجحة ، يخالون أنفسهم ضائعين ،
وحدهم على الأرض ، وعسى الواحد منهم يفكر فى أن الحماقة
وحدها هى التى تشعل النار فى قلوب تلك الآلات السوداء
التي تذهب فى الليل ، تحت النجوم ، تجرى فى السهول
المعتمة ، وتقرقع بجلبتها على الجسور ، وتنفذ فى الأنفاق
الطويلة ، وتقذف بشكاتها بين الحين والحين ، يائسة من أنها
تجر بالليل جنون الناس على طول السكك الحديدية المخطوطة
لكى تطلق السبيل أمام هذياناته الوحشية التى لا ينال منها
الكلال .

وشرب سيلفسبترو نولى قدحا من اللبن ، على جرعات صغيرة ،
ونهض لكى يخرج من المحطة ، من باب القهوة الآخر ، فى نهاية

القاعة • كان بوده أن يذهب الى البلاج ينشق نسيم الليل على
البحر ، بعد أن يعبر الشارع الكبير العريض فى وسط البلدة
النائمة •

ولكنه اذ كان يمر أمام مائدة من الموائد ، شمسعر بندا من
ميدة ترتدى الحداد ، ضئيلة القد ، ناحلة رقيقة ، شاحبة
ومتهضمة ، تخفى وجهها تحت قناع كثيف •

- برفسور نولى •••

فتوقف مندهشا متحيرا •

- مدام ••• أوه • أنت ؟ مدام نينا ؟ كيف حدث هذا ؟
كانت زوجة أحد زملائه ، البرفسور رونشى ، وقد عرفه منذ
سنوات ، فى أتيرا ، فى مدرسة الصناعات • نعم •• مات
- انه يعرف - منذ بضع شهور ، فى الانسيانو ، وقد كان
ما زال شابا • كان قد قرأ النعى فى دهش مؤلم • رونشى ،
المسكين ، ما كاد يصل الى المدارس الثانوية ، بعد كل هذه
المسابقات السيئة الحظ ، حتى مات فجأة من هبوط فى القلب ،
من فرط حبه - كما يقولون - لهذه الزوجة الدقيقة الضئيلة
التي كان يجرها خلفه أينما ذهب ، كذب ضخيم عنيف وعنيد

وقصت عليه الارملة ، وهى ترفع الى فمها منديلها الاسود
الحواشى ، وتنظر اليه بعينيها الرائعتى الجمال ، الغائرتين فى
محجريهما الشاحبين المتورمين ، كل آلام مأساتها الأخيرة
القاسية ، وهى تهز رأسها هزات خفيفة •

ورأى نولى دمتين كبيرتين تنحدران من عينيها الجميلتين
السوداوين ، فدعاها للنهوض والخروج من القهوة معه ، حتى
يتاح لهما قدر أكبر من حرية الكلام ، على طول الشارع المهجور ،
حتى البحر •

كان جسمها الشقى الصغير يرتجف كله ؛ وكان يبدو أنها

تسير في وثبات صغيرة من الانفعال ، وهي تهز كتفيها ،
وذراعيها ، ويديها الجافتين الطويلتين طولاً مفرطاً ، وأخذت
تتكلم بلهجة محمومة ، وكان صـدغـاها ووجنتاها تشـستـعلان
أحياناً . وكانت تتمتم أحياناً ، وتردد الحروف في بداية بعض
الكلمات ، ويبدو أنها تزفر من الغيظ والثورة ، وتمر بمنديلها
دون توقف على طرف أنفها وعلى شفـتها العليا التي كانت تتفصد
عليها قطرات العرق بشكل غريب ، في تعجلها الكلام . وكان
صوتها يختنق أحياناً ويغص بجريان ريقها .

- آه . نولي . ألا ترى . هنا . يا عزيزي نولي ، تركني
هنا . وحدي مع ثلاثة أطفال . في بلد لا أعرف فيه أحداً
على الإطلاق حيث لم أصل إلا من شهرين تقريباً . . . وحدي ،
وحدي تماماً . آه . . . كم كان رجلاً رهيباً غريباً ، يا نولي .
دمر نفسه ، ودمرني أيضاً ، صحتي ، حياتي . . . كل شيء . .
لقد مات وتركني وأولاده للبؤس والشقاء .

وهزتها رجفة طويلة انتهت بصوت يوشك أن يكون صهلة .
واستأنفت حديثها :

- لقد نزعني عن بلدي ، حيث لم يعد لي أحد الآن ، إلا
أخت ، متزوجة . . . ماذا عسى أن أفعل هناك ؟ لن أقبل أبداً
أن أبـدو ، بكل مظاهر بؤس أمام كل أولئك الذين كانوا
يحسدونني يوماً . . . ولكن هنا . . . وحدي مع ثلاثة أطفال
صغار ، لا يعرفني أحد . ماذا أفعل هنا ؟ انني بائسة . .
وأحس نفسي ضائعة . ذهبت إلى روما أطلب المعاش . ليس
لي الحق في شيء . ليس له إلا إحدى عشرة سنة في التدريس ،
أحد عشر مرتباً شهرياً ، بضـع آلاف من الليرات . ولم
يدفعوها لي بعد . وقد صرخت في الوزارة حتى ظنوني مجنونة
. . . وقالوا لي يا سيدتي العزيزة . . . خذي دوشاً بارداً ، دوشاً
بارداً . أي نعم . ولعلني أصبحت مجنونة فعلاً . عندي هنا .
هنا دائماً . ألم . ألم كالنـهش ، كالشـد ، هنا ، خلف العنق ،

نولى . أنا كالمسعوة . نعم . نعم . بقيت مسعوة من الحزن
كأننى محروقة من الداخل . وعندى نار ، نار فى الجسم .
آه . كم أنت هادى ، ويدك باردة ، أنت يا نولى، هادى ويدك
باردة . أنت

وهى اذ تتكلم ، فى وسط الشارع الرطب المهجور ، تحت
المصابيح الكهربائية الواهنة المتباعدة التى لا تكاد تشيع فى
الليل ضوءا خافتا لا شغوف فيه ، تتعلق بذراعه ، وتسند
الى صدره رأسها الملفوفة بغطائها الاسود ، تتحسس صدره
برأسها كما لو كانت تريد لتدفنها فيه ، وتنفجر بدموع
وشهقات لا كبح لها .

وتراجع نولى ، بحركة غريزية ، كأنما ليبعدها عنه ، وقد
ذهل ، وبهت ، واهتزت نفسه هزا عنيفا . وأدرك أن هذه
المرأة البائسة ، فى غمار اليأس الذى ينتابها ، قد تعلقت فى
جنون بأول رجل قابلته من معارفها .

- تشجعى ، تشجعى يا سيدتى . . . يدى باردة . هادى .
أى نعم . هادى . ان عندى امرأتى يا سيدتى العزيزة ،
أنا . . .

- آه .

وهى تبتعد على الفور .

- امرأة ، أنت متزوج ؟

- نعم ، منذ أربع سنوات يا سيدتى ، وعندى ولد أيضا .

- هنا ؟

- هنا . . . قريبا جدا . . . فى مدينة سانت أنجلوز .

- فتركت الارملة الصغيرة ذراعه

- لكن ألسنت من ييمونت ، أنت ؟

- نعم ، من تورين بالضبط .

- وزوجتك ؟

- آه • لا • زوجتى من البلد

وتوقف الاثنان تحت مصباح من مصابيح الشارع • نظرا
أحدهما الآخر ، وفهما أحدهما الآخر

كانت ، هى من الطرف الاقصى من ايطاليا ، من بانيسارا
كالابرا •

رأيا أحدهما الآخر ، فى الليل ، ضائعين فى هذا الشارع
الطويل الواسع المهجور الكئيب الذى يفضى الى البحر ، بين
الفيلات والبيوت الصغيرة النائمة فى هذه البلدة التى شد
ما هى بعيدة من محباتهما الاولى الحقة ، ولكن شدة ما هى
قريبة من الاماكن التى ثبت بها القدر القاسى قربهما • وأحسا
بازاء أحدهما الآخر شفقة عميقة ، رحمة بدلا من أن توحد
بينهما أغرتهم ، بمرارة ، بأن يبقيا أحدهما بعيدا عن الآخر ،
كل منهما محبوس مغلق عليه فى شقائه الخاص الذى
لا عزاء له •

وذهبا ، فى صمت ، حتى البلاج الرملى ، واقتسربا من
البحر • كان الليل هادئا كل الهدوء ، وطراوة -النسيم
البحرى لذيذة •

ولم يكونا يريان البحر اللامتناهى ، ولكنهما كانا يحسانه ،
حيا ، نابضا فى الهوة السوداء ، غير متناسا ، وهادئا فى
الليل • ولكنهما كانا يريان ، فى نهاية ، بين غيامات الضباب
الرائية على الافق ، شكلا له لون الدم الكدر ، يرتعش على
المياه • لعله الهلال الذى يغيب ، يغلفه الضباب •

وكانت الامواج تستطيل ، وتمدد على الشاطئ ، دون
زبد ، كألجنة طويلة صامتة ، تترك على الرمال الصقيطة

اللامعة المشبعة بالماء بضعة أصداف هنا وهناك تنغرز في الرمل اذ تنحسر الامواج .

وكان كل هذا الصمت الذي يفتنهما في السماء ، يعبره ومض النجوم التي لا عداد لها ، تبدو حية كما لو كانت تريد أن تتحدث الى الارض في السر الليلي العميق .

وأخذا يسيران طويلا ، صامتين ، على الرمال الرطبة التي تنزل تحت أقدامهما ، لا يتركان آثارهما الا لحظسة تختفي بعدها الآثار ، فما يكاد ينطبع الاثر حتى يضيع . ولم يكونا يسمعان الا حفيف ثيابهما .

واجتذبهما قارب يضرب الى البياض ، في العتمة ، مقلوب على الرمل . فجلسا اليه ، هي الى جانب منه وهو الى الجانب الآخر ، وبقيا هناك طويلا ، صامتين ، معلقى البصر بالامواج التي تصل هادئة شفافة تتسع على الرمل الارمد الطرى . ثم رفعت المرأة عينيها الجميلتين الواسعتين السوداوين نحو السماء ، وكشفت ، تحت ضوء النجوم ، شحوب جبهتها المعذبة ، وعنقها الذي يخنقه القلق والمعاناة .

- ثولى . ألا تغنى هذه الايام ؟

- أنا . أغنى ؟

- نعم ، ألا تذكر الوقت الذي كنت تغنى فيه ، في الليالي التي يروق فيها الجو ويحلو الليل . ألا تذكر ، في ماتيرا ؟ كنت تغنى ، وما زلت أسمع صدى صوتك الخافت المنغوم ، كنت تغنى نصف هامس ، بعدوبة . . بحلاوة عاطفية ، ألا تذكر ذلك ؟

وشعر ، عند ابتعاث هذه الذكرى غير المنتظرة ، بيقظة في كيانه كله ، ومرت به رجفة حنان لا يوصف

أجل . أجل . كان هذا صحيحا ، كان يغنى في تلك الايام

هناك ، فى ماتيرا ، فى تلك الايام كانت أغانى صباه العذبة
العاطفية ما تزال فى روحه ، وفى الامسيات الرائقة ، وهو
يتمشى مع بعض الاصدقاء ، تحت السماء والنجوم ، كانت
تنشق هذه الاغنيات على شفتيه .

كان حقا اذن ، انه قد أخذها معه ، أخذ الحياة معه ، بعيدا
عن بيت أبويه فى تورين . كانت معه تلك الحياة هناك ،
فى ماتيرا ، طالما كان يغنى عندئذ . بجانب هذه الصديقة
الضئيلة الجسم البائسة ، التى عساه غازلها قليلا . . فى
تلك الايام البعيدة ، من تعاطف بينهما بلا شك ، دون غدر
ودون خيانة . لانه كان بحاجة لأن يشعر الى جانبه بحرارة
محبة صغيرة ، بحنان حلو من صديقه . .

- أتذكر يا نولى ؟

وتمتم ، وعيناه مثبتتان بفراغ الليل :

- نعم . نعم يا سيدتى . أذكر الآن . .

- أنت تبكى ؟

- أننى أذكر . .

وصممتا من جديد . ونظرا ، كليهما ، الى الليل ، وأخذا
يحسان الآن أن شقاءها يوشك أن يختفى . فليس ههنا
الشقاء لهما وحدهما ، بل للعالم كله ، لكل الكائنات وكل
الاشياء ، لهذا البحر المظلم الذى لا راحة له ، لهذه النجوم
الواقضة فى السماء ، لكل الحياة التى لا يمكن أن نعرف فيها
لماذا يولد المرء ، ولماذا يحب ، ولماذا يموت .

وكانت المتعة الهادئة البليدة ، تخرقها كل هذه النجوم ،
على البحر ، تغلف ألهما الذى يتشتت وينتشر فى الليل ،
يتذبذب وينبض مع هذه النجوم ، ويهبط فى ضربات بطيئة
خفيفة رتيبة مع الامواج ، على الشاطئ الصامت . وكانت

النجوم ، هي أيضا ، ترمى بومضها فى هوى الفراغ ، تتساءل لماذا ، والبحر يتساءل بأواجه المكدودة ، وحتى الاصداق الصغيرة المهجورة هنا وهناك على الرمال تتساءل بنفس السؤال .

ولكن العتمة أخذت تتبدد شيئا فشيئا ، وأخذ شحوب الفجر الاول يتبدى على صفحة البحر . وعندئذ أخذ كل ما هو مشئت ، خفى ، بل مبطن ، من ألم هذين الكائنين المسنين الى جدران القارب المقلوب على الرمل ، ينكمش ويتحسد ، بصلاية عارية جافة ، كلامح وجهيهما فى نور الفجر المهتز الحزين .

وأحس نولى بالبؤس يأخذه من جديد ، بؤس بيته القريب الذى سرعان ما يصل اليه الآن ، ورأى بيته ، كما لو كان قد وصل هناك ، بكل ألوانه ، وخصائصه ، وامراته وولده بداخله ، يختفيان بوصوله . وهى أيضا . الارملة ، لم تعد ترى مصيرها بكل ذلك السواد ، وكل ذلك اليأس ، كان لديها بضعة آلاف من الليرات ، أى أن حياتها مكفولة شيئا من الوقت . وستجد الوسيلة لتنظيم مستقبلها ومستقبل أولادها الثلاثة . فسوت شعرها بيديها على جبهتها ، وقالت مبتسمة :

- من يعرف كيف أبدو يا صديقى العزيز ، أليس كذلك ؟
وأخذا يسيران عائدين نحو المحطة .

وبقيت ذكرى هذه الليلة فى أعرق ركن من روحيهما ، ومن يدري ؟ لعلها تظهر من جديد ، أحيانا ، فى ذكرياتهما البعيدة ، كنافورة من الشعر الخفى والمرارة الخفية ، ومع ذلك البحر الهادى المظلم ، وكل تلك النجوم الومضة .

« جنون القمر »

لويجي بيرانداتو

كان باتا جالسا ، مقعيا منكمشا على بعضه البعض ، على
حزمة من التبن ، فى وسط الجرن

وكانت سيدورا زوجته ، تستدير لتنظر الى زوجها الساهم
الشارد الذهن ، من حين لآخر ، وهى على عتبة البيت ، حيث
كانت تقف مسندة رأسها الى اطار الباب ، عيناها نصف
مغمضتين . ثم مدت بصرها وقد أرهقتها الحرارة ، الى أبعد
حتى الخط الأزرق الذى يبدو من البحر البعيد ، كما لو كانت
تنتظر أن يهب منه نسيم خفيف ، مع غروب الشمس ،
فيصل اليها عبر الاراضى المعراة الجافة المشعشة من أثر
الدريس المحروق .

وكانت الحرارة من شدة الوطء بحيث كان الهواء يبدو
مشبعا بريح موقدة مشتعلة ، فوق التبن الذى يتناثر فى
الجرن ، بعد دريس القمح .

وكان باتا قد استل عودا من القش ، من الحزمة التى كان
يجلس عليها ، وأخذ يحاول أن يضرب به حذاءه الغليظ ،
بيديه الخشنتين القشفتين ، لكن محاولته ضاعت عبثا ، فما
كاد يحرك عود القش حتى انثنى ، وظل باتا عابسا مهموما
يستغرقه التحديق الى الارض .

وكانت هذه الحركة التى لا طائل ورائها ، ما يفتأ زوجها
يكررها بعناد ، فى الفضاء المعتم الحامد بلا حراك ، تثير عند
سيدورا غضبا مكتوما متفززا لا يطاق . بل كانت كل حركة
فى الواقع ، يأتيها هذا الرجل ، بل مجرد مرآة يثير عندها
هذا الانفعال الذى لا تكاد تقمعه فى كل مرة الا بعناء ومشقة

لم تكده عشرون يوما تنقضى بعد على زواجها ، وهما هى ذى

سيدورا تحس بنفسها مقضيا عليها ، هالكة ، وكانت تحس
فى داخلها ، ومن حولها ، بخواء غريب فادح الثقل ، وقاس .
ولم يكن يبدو لها ، حقا ، أنها قد اقتيدت الى هنا منذ هذه
الايام القلائل فقط ، الى هذه المزرعة القديمة المنعزلة ، الى
هذا البيت لذى هو اصطبيل فى نفس الوقت ، وسط هذه
الصحراء من دريس القمح ، دون شجرة تحيظها ، دون خيط
واحد من الظل .

هنا ، منذ عشرين يوما لما تكذ تنقضى ، تكاتم دموعها وغيظها
بالكاد ، أسلمت جسمها لهذا الرجل الصموت الذى يكبرها
بنحو عشرين سنة ، وهو الآن تثقله ، فيما يبدو ، كآبة
أقدح يأسا من كآبتها .

وتذكرت ما قالت نساء الجيرة لامها ، عندما أنبأتهم بخطوبته
- باتا . يوه يا ختى ، دانى ما كنتش أديه واحدة من بناتى
أبدا ، لما يسوى الهوايل

وظنت أمها أنهن يقلن ذلك من الحسد ، فقد كان باتا رضى
الحال . وبقدر ما عزفت النسوة عن مشاركتها رضاها بالخط
الطيب الذى وقع من نصيب بنتها ، واتخذن مظهرًا محزونًا
مكروبا ، بقدر ما عاندت وصيحت أن تعطيه بنتها . لا ، لم
ينل أحد باتا بسوء ، فى الحقيقة ، ولكن أحدا لم يذكره بالخير
أيضا . فلم يكن أحد يعرف كيف يعيش ، معتكفا منقطعا
فى ركن بعيد من الارض ، وقد كان وحيدا دائما ، كما لو
كان حيوانا ، برفقة بهائمسه ، يغلين ، وحمارتين ، وكلب
للحراسة . وقد كان بالتأكيد يبدو بمظهر غريب حيوانى
مستوحش ، ويسلك أحيانا سلوك المجانين

لا شك أن هناك سببا آخر ، أخطر وزنا ، دعا الالم لان
تصمم على أن تعطى لهذا الرجل . وتذكرت سيدارو هذا
السبب الآخر الذى كان يبدو لها الآن بعيدا جدا ، كما لو
كان يرجع الى حياة أخرى ، لكنه سبب واضح دقيق . رأت

شفتين نديتين ، رقيقتين وقانيتين ، كورقتي قرنفة ، تفتحان
عن ابتسامة تثيرها ، وترجفها ، وتجعل دمها يغلي في شرايينها .
شفتا سارو ابن خالها ، ذلك الذي لم يقو ، بالرغم من حبه
لها ، أن يصلح من شأنه وأن يتخلص من رفقة أصحاب السوء ،
حتى يحرم أمها من كل تعلقة لرفض زواجها به .

آه ، مؤكدة أن سارو كان ليغدو زوجا غير طيب بالمرّة ،
ولكن الآن ، ماذا نالت من زواجها هذا ؟ ألم تكن الاحزان التي
كان الآخر ، دون شك ، لينكبها بها ، خيرا من هذا القلق
الخائق ، والغيط ، والخوف الذي يثيره هذا الزوج في
نفسها ؟

ثم استقام باتا أخيرا ، وما كاد ينهض حتى أصابه دوار ،
فدار حول نفسه نصف دورة ، وانطوت ساقاه تحته كما لو
كانتا مقيدتين مغلولتين ، وما بلغ التحامل على نفسه الا بمشقة
وذراعاه تضربان الهواء ، وانطلق من حلقه خوار غاضب
مستثار . .

فجرت سيدورا وقد استبد بها الهلع ، لكنه أوقفها بحركة
من ذراعه ، وغزا فمه سيل لا يفيض من اللعاب حال دونه
والكلام . فطردها عنه من جديد ، وهو يعوى بها ، الى داخل
البيت ، وهو ينافح الفواق الذي يهزه ، وفي حلقة غرغرة
مخيفة . وكان وجهه شاحبا ، مكروبا ، بلون التراب ، وعيناه
رهيبتان ، مندرتان ، محجوبتان ، يستبين فيهما ، من وراء
الجنون ، خوف يكاد يكون صبيانيا ، خوف ما زال وأعيانا
مدركا ، ولا نهائيا . واستمر يشير بيديه ، لكي تنتظر ،
لكي لا تخاف ، ولكي تظل بعيدة عنه . وصرخ في النهاية ،
وبصوت ليس من صوته :

- جوه . احبسي نفسك جوه . كوينس . ما تطربيش .
بلا أخط وأرجع . وأهز الباب وأخرمش فيسه ، وأزعج
ها تطربيش . ما تفتحيش . أبدا . ياللا . روحي .

فهتفت سدارو مذعورة :

- ياه .. مالك ؟ ايه الى بيك ؟

فأطلق باتا من جديد صرخة مكتومة مصمتة ، وارتجفت جسمه فى تشنيج عصبى ، حتى بدت أطرافه كأنها قد تضاعفت أضعافاً ، ثم أشار الى السماء ، وهو يهز ذراعيه ، وجأر :

- الجمر ..

واستدارت سیدارو تجرى الى البيت ، ورأت فى ذعرها ، البدر المكتمل ، مشتعلاً ، يضرب الى لون بنفسجى ، ضخماً هائلاً ، لم يكده يبرزغ من قمم جبال لاكروكا المغبرة الضاربة الى السواد .

وأوصدت على نفسها الباب من الداخل ، وضمت ذراعيها الى جسمها كما لو كانت تخشى أن تنتزعها منها تلك الرعشة التى تهزها ، لا تغلب ، وتضطرد قوتها . وهى تصرخ أيضاً ، وقد أفقدها الخوف صوابها . وسرعان ما سمعت خوار زوجها وزئيره الطويل الوحشى ، وقد تقبض جسمه ، بالخارج أمام الباب ، فريسة للمرض الرهيب الذى يأتیه من القمر . وكان يخبط الباب برأسه ، وقدميه ، وركبتيه ، ويديه ، ويخدش فيها خدوشاً خشنة عميقة ، كما لو كانت أطافره قد استحالت الى مخالب ، وهو ينفخ ويزفر وقد أثاره ، وأضناه تعب غاضب محنق حيوانى ، كما لو كان يريد أن ينتزع الباب ، أن يحطمه . وأخذ ينبج الآن ، كما لو كان هناك كلب فى جلده ، ويخدش الباب من جديد ، يميل لعابه ، ويهدر ، ويدق الباب برأسه ، وركبتيه .

فصرخت ، وهى عارفة أن أحدا لن يسمعها فى هذا الخلاء :

- الحجونى .. الحجونى ..

وهى تسند الباب بذراعيها ، خشية أن يتفتح ، بالرغم من

المتاريس المتعددة ، تحت ضغط العنف المتكرر الوحشي المتوقع
فى هذه الثورة العمياء الهادرة .

آه . لو كان بوسعها أن تقتله . واستدارت وقد جن جنونها
وهى تتمنى تقريبا لو أنها وجدت سلاحا فى الغرفة . ولكنها
رأت القمر من جديد ، من خلال قضبان النافذة ، على الجدار
الامامى ، وقد صفا الآن وترقرق ، وأخذ يعلو فى السماء ،
يسبح فى ضوءه الناعم . وأطلقت ، عند هذا المشهد ، كما لو
كان مرض القمر قد مسها بعدواه فجأة ، صرخة مروعة ،
وسقطت على ظهرها ، دون ادراك

وعندما ثابت الى وعيها ، مشلولة الحس ، لم تفهم أولا ،
لم كانت متمددة على الارض بهذا الشكل . ثم أعادتها
المتاريس المسندة بالباب الى الحقيقة ، وذعرت ، فورا ، من
الصمت الذى كان يسود الآن فى الخارج . ونهضت مترنحة ،
واقتربت من الباب ، وأصاحت السمع .

لا شيء . . لا شيء أبدا .

وظلت طويلا تصيح السمع ، يرهقها ويبهظها الآن هذا
الصمت الغريب الشامل ، صمت الكون بأسره . وخيل لها
فى الآخر أنها سمعت ، على مقربة منها جدا ، صوت تنهدة ،
تنهدة كبيرة ، كما لو كانت نفثة صادرة عن قلق ميت

فجرت على الفور الى الصندوق تحت السريز ، وجذبت به
نحوها ، وفتحته ، وأخرجت منه ملحفتها ، واستدارت ناحية
الباب ، ومدت سمعها من جديد طويلا ، ثم رفعت المتاريس
واحدا بعد واحد ، بصمت ، وأزاحت المزلاج الداخلى ، وواربت
ضليفة من الباب بالكاد ، وأخذت ترصد الخارج ، من الخرق
الضيق الموارب .

كان باتا هناك أمامها ، راقدا كحيوان ميت ، منبطحا على

بطنه ، فى وسط لعبه ، وقد اسود وجهه وتورم ، وذراعا مفتوحتان ، وكان كلبه بجانبه يحرسه ، تحت القمر .

وخرجت سيدورا ، وهى تحبس أنفاسها ، وأغلقت الباب بحرص تام ، وأشارت الى الكلب بإشارة عنيفة ألا يتحرك ، وأخذت ملحفتها تحت ذراعها ، ومشيت ، فى حيلة ، بخطوات مسترقة ، وهربت فى الخلاء ، متجهة الى القرية ، فى الليل الذى ما زال فى عنفوانه ، وقد غمره ضوء القمر .

فوصلت الى بلدها ، عند أمها ، قبيل الفجر ، وكانت أمها قد نهضت منذ قليل . وكان الكوخ المظلم ، كالجب ، فى آخر زقاق ضيق ، لا يكاد يستنير بمصباح زيتى صغير . واندفعت الى داخل البيت ، فبدأ أنها تشغل المكان كله ، مضطربة ، منقطعة النفس .

فأطلقت الام صرخاتها ، اذ رأت بنتها فى تلك الساعة ، وفى تلك الحال ، وجرت نسوة الجيران جميعا اليها ، والمصابيح الزيتية فى أيديهن .

وانخرطت سيدارو فى البكاء بدموع حارة ، وهنئ تنزع شعرها ، وتبكي ، وتتظاهر بأنها عاجزة عن الكلام ، حتى تتيح لامها ، وللجيران ، أن يفهم وأن يحكم على مدى البلوى التى نزلت بها ، والذعر الذى نال منها .

.. أتجنن م الجمر ! أتجنن م الجمر !

وغزا قلوب النسوة جميعا ذعر خرافى من هذا المرض الغريب الغامض ، عندما حكى سيدورا حكايتها ، اه . غلبانة ألم يقلن ، هن ، لامها ، ان هذا الرجل لم يكن طبيعيا ، وأنه لا بد يخفى سوءة لا يمكن الاقرار بها ، حتى أنهن لم يكن ليعطينه بنت واحدة منهن ، كان ينبح؟ كان يعوى ، كالذئب؟ ويخدش الباب بأظافره؟ يا يسوع ! يا حفيظ !

وكيف لم تمت البنت من هذه الحكاية ؟ غلبانة !
 وجلست الام ، منهارة على كبرسي ، هالكة . تتدلى ذراعها إلى
 جانبيها ، رأسها محنية ، وهي تثن ، وتقول في ركنها :
 - آه ، بنتي . آه . بنتي . آه ، بنتي يا غلبانة . راحت
 البنت . . راحت .

وعند مغرب الشمس ، ظهر باتا على الطريق ، يجر خلفه
 بغليه المظلمين . كان منتفخ الوجه ، مصفرا ، خائرا ، مكروبا
 ومهدود الحيل .

وعندما سمعت النسوة دق حوافر البغال على حصى الطريق
 التي كانت تشعلها شمس أغسطس كأنفون ، فيغشى البصر ،
 بسبب بهرة الطباشير ، انسحبن جميعا ، يكاثمن صرخاتهن
 وحر كاتهن من الذعر ، ويحملن كراسيهم ، إلى داخل الاكواخ ،
 في عجلة ، وأخرجن رؤوسهن من الابواب يرصدن ما يحدث ،
 ويتبادلن الاسارات بالعيون ، فيما بينهن .

وخرجت أم سيدورا على العتبة ، متكبرة ، ترتعش من الثورق
 وأخذت تصيح :

- ابعد من هنا ، ابعد يا كافر . وعندك جلب تيجي لحديث
 عندي ؟ يا لا امش انجر . . انجر من جدامي . ودمرت بنتي .
 ضيعت بنتي . امش من جدامي .

واستمرت تلجج وتصخب فترة من الزمن ، على هذا المنوال ،
 بينما كانت سيدورا قد انسحبت الى ركن في الداخل ، تبكي
 وتتوسل إلى أمها أن تدافع عنها ، وألا تدعه يتقدم .

وأصغى باتا ، محنى الرأس ، لتهديدها ، ووعيدها وشتائمها .
 فقد كان يستحقها ، كان مخطئا ، لانه أخفى مرضه . أخفاء
 لان امرأة ما لم تكن لترضى به لو أقر به . وكان من الحق أن
 يجتمل الآن عواقب خطئه .

كان مغمض العينين ، وقد هبط رأسه على صدره في أتم ،
دون أن يخطو خطوة واحدة * وعندئذ أقفلت حماته الباب في
وجهه ، وأوصدته بالضربة والمفتاح * وبقي باتا لحظة ، محنى
الرأس ، أمام الباب المغلق ، ثم استدار ، ورأى على عتبات
الأكواخ الاحمرى النسوة الكثيرات ، يترصدته بعيون مليئة
بالكرب والاذعر * وهذه العيون رأت الدموع على وجه الرجل
اليائس ، عندئذ انقلب الذعر الى رحمة .

فأنت له احداهن ، أكثرهن شجاعة ، بكرسى ، وخرجت
الباقيات ، مشى وثلاث ، وأحطن به وشكرهن باتا ، بإشارات
خرساء من الرأس : أخذ يحكى لهن ببطء بالغ ، حكاية
بلواه * كانت أمه ، فى صغرها ، قد ذهبت به لغيطان القمح ،
ونامت فى الجرن وتركته ، وهو طفل ما يزال ، معرضا لضوء
القمر طول الليل ، وهو الطفل البرىء البائس ، بطنه مكشوفة
للهواء ، بينما راحت عيناه تهيمان هنا وهناك ، وراح يلعب
بالقمر الحلو ، وهو يهز ساقيه الصغيرتين وذراعيه الصغيرتين .
فسحره القمر * ولم يظهر هذا « السحر » مع ذلك طوال
سنين عديدة ، ولم ينكشف الا منذ قليل من الزمن * والمرض
ينتابه عند اكتمال البدر ، مرة واحدة كل شهر * لكن المرض
لا يصيب أحدا غيره ، ويكفى أن يحتاط منه الآخرون ، وفى
وسعهم أن يحتاطوا منه أحسن الحيطه ، اذ لا يأتيه هذا الا
فى مواعيد ثابتة ، وهو يحس نذر المرض ، ويتوقع مجيئه ،
فى كل مرة ، ولا يستغرق ذلك الا ليلة واحدة ثم ينتهى الامر .
وقد أمل أن تكون امرأته أشجع جنانا ، وما دامت ليست كذلك
ففى الأماكن ترتيب الامور ، بحيث تحود الى بلدها ، عند
أمها ، فى كل مرة يكتمل فيها البدر ، أو تأتي أمها اليها فى
المزرعة ، لتراقبها تلك الليلة .

ووثبت سيدور عندئذ ، متقدة الغضب ، شرسة ، وهي تفتح الباب على مصراعيه ، وقد كانت تسترق السمع من ورائه .

- أنتِ اطبرتِ ؟ أمي كمان ، عاوزة تجتلبها من الطربة ؟

وخرجت الام تزيج بنتها بكوعها ، وتأمرها بأن تخرس ، وأن تكن في البيت . واقتربت من جماعة النسوة ، وقد أصبحت جميعا رحيمات خيرات وأخذت تتكلم معهن ، ثم مع باتا ، ونحديها .

وكانت سيدورا ، من عتبة الباب ، تتبع حركات أمها وزوجها حائرة وجلة مغيظة ، وخيل لها أن زوجها يعد أمها ، بحرارة . بعود تلقتها هذه بترحيب واضح ، فصرخت :

- لا يهملك منه . سينك منه . انتوا عما تتفجوا بناتكم ؟
مافيش فايده . مافيش فايده . ط مبداني اللي لازم أرضي ،
آني لوحدي .

فأشارت لها نسوة الجيران بالحاح ، أن تصمت ، وأن تنتظر احدي . رهينة ، ثم شكر الجيران ، وذهب يجر خلفه البغلة نهاية الحديث . وسلم باتا في النهاية على حماته ، وترك عندها احدي بغليه رهينة ، ثم شكر الجيران وذهب يجر خلفه البغلة الاخرى من خطامها

وقالت الام على الفور ، بصوت خفيض ، وهي تعود لبيتها :

- اخرسي انت يا بت ياهيلة . لما ييجي إليتري في تمامه ،
حاجي أجيلك ، مع سارو . . .

- مع سارو ؟ هو اللي جال ؟

- آني ابي جلت له . اخرسي انت . مع سارو . . .

وخفضت عينيها لتخفي ابتسامتها ، وتظاهرت بأنها تمسح

فمهما الادرد بطرف المنديل الذى تلف به رأسها ، وتعقده
تحت ذقنها ، وقالت :

- وهو احنا لينا راجل غيره فى العيلة ؟ هو آلى يجامى لنا
ويراعينا اسكتى انت .

فعادت سيدور من الفجر ، فى الغد ، على البغلة الاخرى
التي تركها زوجها .

ولم تعد تفكر فى غير ذلك طوال التسعة والعشرين يوما
الباقية على اكتمال البدر الجديد . وأخذت ترقب قمر أغسطس
يتناقص شيئا فشيئا ويتأخر مشرقه أكثر فأكثر ، وكم كانت
تود لو عجل بهذه الخطوات الآملة ، ثم لم تعد تراه بالمرّة بضع
ليال . ثم رآته أخيرا ، الهلال الجديد ، رقيقا فى سماء الاصيل ،
ثم أخذ يتزايد شيئا فشيئا من جديد .

وكان باتا يقول لها ، بحزن ، اذ يراها مثبتة العينين دوما
بالقمر :

- ما تخافيش ، لبسه بدرى . لسه بدرى . العيا ماييجيش
الا لما تروح الجيران دول بتوعه . .

وأحسنت سيدورا برعشة عند سماعها هذه الكلمات ،
مصحوبة بابتسامة غامضة ، فنظرت اليه مفرعة .

وأخيرا جاءت الليلة المشتهاة المخوفة فى وقت معا . ووصلت
الأم ، على حصنان ، مع ابن أخيها ساروا ، قبل بزوغ القمر
بساعتين .

وكان باتا يجلس كالمرّة السابقة تماما ، مقبعا منكمشا على
بعضه البعض ، فى الجرن ، ولم يرفع رأسه لتحيتها ، حتى
نأما . . . يندورا ، وقد كانت ترتعش أوصالها جميعا ، فقد

أشارت الى ابن خالها ، وأمها ، ألا يوجها له كلمة واحدة ،
وسبقتهما الى داخل البيت * وذهبت الام تبحث فورا وتنقب
في غرفة معتمة مجاورة للغرفة الكبيرة ، وهي تستخدم
اصطبلا أيضا ، حيث تراكمت الادوات القديمة : ألفؤوس
والمناجل ، والمجارف ، والاجربة والشوالات .

وقالت سارو : انت راجل .

وقالت لبنتها : و انت أديكى عارفه هو بيعمل ايه . لكن
أنا عجزت خلاص ، ويخاف من خيالى . أنا جاعدة هنا فى الركن
لوحدى ، شى حنطج بكلمة . حجفل على نفسى ، وهو يعمل
زى الديابة برا بخطرته .

وخرجوا ثلاثتهم ، وظلوا يثرثروا فترة طويلة أمام البيت .
وكانت العتمة تهبط على الريف ، فتتقد نظرات سيدورا ،
وتهتاج . أما سارو ، فعلى العكس ، وهو المرح المنطلق فى
العادة ، المتوفر بالنشاط أخذ يحس شعوبا ، وهبوطا يتزايد
شيئا فشيئا ، وتصلبت ابتسامته على شفتيه ، وجف ريقه
وكان لا يكاد يستقر فى جلسته ، كما لو كان فى الحائط الذى
يجلسون عليه أشواك تخزه ، ويبلغ ريقه بمشقة . وكان
يلقى بنظرة بن الحين والحين ، الى هذا الرجل هناك ، ينتظر
هجوم الازمة ، بل كان يمد عنقه ليرى ما اذا كان البدر ، بوجهه
المخيف ، لم يبرز بعد ، من خلف جبال لاكروكا .

وقال للمرأة : لسه مافيش حاجة .

فأجابته سيدورا ، بحركة احتقار محتدمة ، واستمرت
تهيجه بنظراتها وهى تضحك .

وأخذ سارو يشعر بالذعر ، وهو يستهول هاتين العينين
اللتين كادتا تفيضان بالجسارة والفجور ، أكثر مما يستهول
هذا الرجل المنكمش هناك لا ينتظار .

وكان هو أول من قفز كالجدى ، إلى البيت ، بمجرد أن أطلق
باتا صرخته المنذرة ، وأشار بيديه للثلاثة الآخرين أن
يحبسوا أنفسهم على الفور بالداخل • آه • شد ما تعجل
سارو بوضع المتاريس خلف الباب ، بينما أخفت العجوز
نفسها ، بحيرة وخزي ، فى الغرفة الجانبية الضيقة ، وأخذت
سيدورا تردد ، محنقة ، مثبطة ، بلهجة ساخرة :

- ما على مهلك إمال • حاسب على نفسك • ما فيش حاجة
ماذك حتشوف ...

لا شيء ؟ آه • لا شيء • وقد وقف شعره على رأسه بمجرد
أن خبط باتا على الباب ، وعند أولى صرخاته ، وعند أولى
خبطاته بالقدمين على الباب ، أخذ سارو يرتعش كالورقة •
وفد بلل جسمه بالعرق البارد ، وسرت فى ظهره رجفة
لا تتوقف ، وانفتحت عيناه فى محجريهما • لا شيء ؟ يا الله ...
بالله العظيم • ولكن ماذا ؟ أهما مجنونتان هاتان المرأتان ؟
وبينما كان زوجها بالخارج ، يخبط على الباب فى ضجة مروعة ،
أخذت سيدورا تضحك ، جالسة على السرير ، تهز ساقيها ،
وتمد له ذراعيها ، وتناديه : سارو • سارو •

نعم ؟ ووثب سارو ، غاضبا ، وقد ثار ثائره ، الى الغرفة
الجانبية الصغيرة ، وأمسك العجوز من ذراعها ، وجذبها الى
الخارج ، ورماها على السرير بجانب بنتها ، وهو يصرخ :

- خدى ، خدى يا شيخه ، دى بنتك مخبولة •

وتراجع نحو الباب ، فرأى ، هو أيضا ، من بين قضبان
النافذة العالية ، على الحائط الأمامى ، البدر الذى كان يصيب
ازوج بكل هذا الضر ، البدر الذى يبدو كما لو كان يضحك ،
سعيدا وراقعا ، من خيبة انتقام الزوجة •

أنطونيو بالدينى :

ولد فى روما سنة ١٨٨٩ • وحارب مع المشاة فى الحرب العالمية الاولى • وعاد ليكتب عن انطباعات الحرب كتابه : « جحيمننا » وعمل بالصحافة - وهى خطوة لا مفر من أن يتخذها كل الكتاب الايطاليين على التقريب - وقد عنى بالدراسات القديمة • وفى كتابته مزيج موفق بين الصرامة الكلاسيكية وحساسية القرن العشرين •

وذكرياته عن طفولته تكاد تقارب الجو البروستى : « من أبعد أعماق ماضى » - ولعلنى لم أكن قد جاوزت الرابعة من عمري - ما زال بوسعى أن أرى ورق الجدار المنقوش برسوم الزهور فى غرفة ضيقة دقيقة يفيض عليها النور • وذاكرتى لا تطيق أن تبعد عن ذلك ذاهبة فى الماضى ..

وله دقة فى الملاحظة ، ونزعة الى الشاعرية • وقد ظهرت القصة التى نختارها له فى مجموعة نشرت منذ سنة ١٩٤٠ •

وهو الى جانب دعايته التى لا ترقى عنها دعاية ، فى قصته هذه ، وسخريته تلك الباسمة التى لا مفر فيها ، يحنو على رجله المسكين وكأنه يربت له على طيبة قلبه ، طيبة جذرية مهما بدا من شقاوته الساذجة الحام ، ويضحك من خوفه من كل مغامرة ، ونجريه ليلعق أى فتات يتساقط من مائدة محملة لا يستطيع - هو - أن يجلس اليها ، بل يقنع بصنوف خاصة به وحده من اللذة - بل الغبطة والنشوة - فى الفتات الساقط اليه عرضا من وليمة للحياة •

فهل الكظة والشبع والتخمة ، بامتع ، أو أرقى ، أو الد - ما دمنا فى معرض اللذة الحسية - من التقاط ذريات

وهبوات طائفة على طرف لسان جائع مصوح من الجوع
والعطش - ومن ثم فهو مرهف اللوق حتى آخر أطراف
الحساسية ؟ فإن هذه النتف المتطايرة من اللدائد أيضا
- كالأخرى وأكثر - تتبع برعشاتها الشاملة فتتنفض كل
أوصال الجسم المتوتر المشنود طلبا لها .

مسكين زفيرينو ..

فالقليل - بل القليل جدا - هنا ، هو كل الوليمة التي لن
تشبع شيئا - في النهاية - ولن تغني عن جوع آخر عميق .

زفيرينو

أنطونيو بالدينى

كان بيلادى زفيرينو باشيوشيوولى عزبا فى منتصف العمر ، ولم يكن بالرائق السمة ، ولا بالدميم الحلقة ، وليس هو بالاسمر ولا بالاشقر ، وليس خجولا هيابا ولا جسورا مقحاما ، وليس محبب العشرة ولا كرية المقام . وأنا أقصد أن أقول أنه كان ينتمى الى تلك الفئة من الناس التى لا يلقي أحد اليها بالا ، فى خارج نطاق تلك الدائرة المباشرة التى تضم أقرباءه وأصدقاءه . الا أن تلك الدائرة واسعة عريضة جدا ، تشتمل على عدد غير مألوف من أقاربه الاقربين ، كما تشتمل على عدد أكبر ، إن كان ذلك ممكنا ، من أبناء الأعمام والأخوال من الدرجات الاولى ، والثانية ، والثالثة ، رجالا ، ونساء . وهذه الطائفة الاخيرة هى الطائفة الهامة . ولما لم يكن لديه ما يشغله كثيرا طول النهار ، فقد كان الاغلب أن تجده فى بيت أحد أبناء عمومته من الرجال ، أو فى بيت إحدى قريباته ، سواء كانت فتاة صبية ، أو عروسا منتظرة ، أو أرملة جذابة . وإن كان من المسلم به أنه كان فى الحق يتشوف زيارة هاته القريبات ، على الاغلب ، ولا يذهب فعلا الا فى القليل من الاحوال . فلم يكن يعرف غيرهن من النساء وقصر اهتمامه على بنات عمومته العزيزات . وفى تلك الدائرة كما ذكرت ، كان عليه أن يختار - فى مجال واسع للاختيار - فيجد الفرص السانحة لان يرقبهن وهن يقمن بأعمال البيت أو شغل الابرة أو يقرأن . ولم يكن ليتوانى فى اغتنام الفرصة ، فيتبعهن الى المطبخ ، وهو لا ينسى عن الثروة ، أو يدير لهن ببطء لفات الصوف على يديه ، بينما يقمن هن بفك اللفة . ويتلبث زفيرينو فى البيت ، يسدى ألف خدمة ، فيقف على الكراسى والموائد ليصلح من الانوار والاجراس

الكهربية ، ويضبط الراديو ، ويبحث لهن عن الارقام فى دليل
التليفون ، ويقرأ الاخبار لعماته ، أو التقارير البرلمانية لاعمامه
وبعبارة موجزة لم يكن عدد المدافىء التى يدفء نفسه بها ليقل
بأى حال ، عن عشرين مدفأة ، فى عشرين بيتا . وكانت
صفحات مذكرته قد سودت كلها بتواريخ أعياد الميلاد ،
وأعياد الاسماء ، واليوابيل الفضية للزواج ، التى يحتفل
بها أقرباؤه جميعا ، نساء ورجالا ، كبارا وصغارا ، ولم تكن
لتفوته حفلة تنصير واحدة ، ولا حفلة قربان أولى ، ولا حفلة
قران ، ولا جنازة ، بل بسط جناح صداقته لكلاهم ، وقططهم
وللمكنارى ، والبيبغاوات ، وكان يخزن فى ذاكرته ميزات
الخادومات ، ونقائصهن ، فى البيوت التى يتردد عليها ، بعد
سنوات عدة من موت الخادومات المذكورات ، أو رحيلهن .

ولكن بنات عمه كن اختصاصه الاول ، ونقطة تفوقه ، أو
ينبغى أن أقول ، نقطة ضعفه . وكان يأتيهن حزيننا ، صامتا
بطريقة مهذبة لطيفة خفية ، مقصودا بها ألا تمس مشاعر
الخطيب أو الزوج ، ولا تثير فيه غيرة مسرفة غير مأمونة . وعلى
ذلك فقد كان يتمتع بامتياز الدخول الى أكثر حرم العائلات
قداسة واستعصاء ، دون أن يثير فضيحة ولا استغرابا . فقد
كان ليبدو من غير اللائق أن ينكر على هذا الخبير بصنوف
الطعام والشراب مثلا ، ويألف شىء آخر أيضا ، فرصة اسداء
خدماته . بل لم يكن من غير المعتاد ، فى الواقع ، عندما يدخل
بيتا أو يخرج منه ، أن يمس يد بنت عمه العزيزة ، لحظة
أطول مما ينبغى ، أو يقرص خد بنت أخت عزيزة لم يعد من
الممكن أن تعتبر طفلة تماما الآن . أما فى الصيف ، عندما
كن يذهبن أو يجئن من أمامه ، فى فساتين بلا أكمام ، فقد
كان يبلغ أحيانا أن يمسك بالذراع العارية ، ويضع اصبعها
أو اصبعين على المرفق ، فى نفس الوقت . وذلك أقصى ما
يصل اليه . وفى حالات الازمات العائلية فقط ، والجنازات ،
كما سبترى الآن ، كان يستطيع زفيرينو أن يذهب الى أبعد

من ذلك ، ولم يكن ليتوانى أبدا عن الظهور ، اذ تسنح فرصة
للحقاق بجمع عائلي حزين ، وعندئذ كان ينسل من باب
الحزن المفتوح ، كلص ، ليختطف على أطراف أصابع احساساته
ان صبح التعبير ، أغمض أنواع المتعات وأرهفها وأخفها ،
ولنأخذ الحوادث الصغيرة التالية مثالا :

كان زوج كونشيتا الشاب قد مات ، وأودع جثمانه التراب
وكانت الارملة التي برح بها الحزن ، وند عنها العزاء ، قد
سقطت ، بعد أن عادت من الجنازة ، تبكي على مقعد طويل في
البيت . وما زال قناعها الاسود الكثيف مسدولا على وجهها
فقبض زفيرينو على إحدى يديها ، يهتصرها مشجعا ، وفك
الدبوس عن قبعتها . فأفضى ذلك الى تحرير وجهها من القناع
ومكنه من أن يسوى ، برقة بالغة ، شعرها الذي تهدل على
صدغيها ، فهو شا على وجهها المتورم من البكاء . ومر بأطراف
أصابعه على وجنتيها المندتين بالدموع وهو يدفعها ، بلطف
وعزم ، يقنعها بالاضطجاع قليلا على المقعد ، لتمالك قواها .
وأمسك بها ، في ذلك ، من تحت ابطيها ، وهو يبذل جهدا ،
ليرفعها على ساقبيها اللتين لا تكادان أن تقويان على حملها .
فدفنت رأسها على صدر ابن عمها ، في انفجار من الحزن ، وقد
استبد بها الاسى حتى لم يعد بمقدورها أن تكبحه .

وقد أصبح مفرق شعر كونشيتا ، الارملة ، الآن ، في
متناول شفتى زفيرينو ، فكم كان يتحرق ليضعها عليه .

وفي طريقه الى البيت ، بالرغم من الريح التي كانت تصفر
في الشوارع ، تثير التراب وتهز مصابيح الشوارع ، كان
زفيرينو ما زال يحتفظ في أنفه بعبق الشعر الاسود ، والقماش
الاسود الجديد ، والازهار الذابلة . وتساءل ، هل انتبهت ؟
وكان هذا السؤال ملحا وكان وعييه بالعبق المتخلف عنها
حادا ، حتى لم يستطع أن يتناول افطاره ، بل شعر بما
يقسره على الذهاب الى كونشيتا . واندفع . واندفع صاعدا

كالسهم على السلالم ، وقلبه يخفق • ولسكن الارملة تلقت
نحياته في دهشة وشرود ، فأدرك زفيرينو على الفور ، دون
حاجة الى أدلة أخرى ، ان كونشيتا لم تنتبه لشيء • الا أن
ذلك لم يقلل من أن ذكره المتواضعة لتلك اللحظات الاولى
العذبة كانت تكفى لتغذية زفيرينو بالنشوة زمنا لا تحديد له
وعندما غيرت كونشيتا طريقة تصفيف شعرها ، فلم يعد
يستطيع أن يرى الفرق الابيض فى وسط شعرها ، أحس
بما لم يكن ليقبل أن يسلم به طواعية من الحزن والضيق •
حتى ماتت السيدة روزاليتا أم جرازبيلا •

وسرعان ما كان ييمم شطر بيت عمته المسكينة • كانت
الفوتوغرافية القادمة • وكان وجهها مختفيا تحت ذراعيها
الجامدتين بلا حراك • وكانت تأتى من الغرفة المجاورة تمتلئ
صلوات ورائحة الشموع • وسحب زفيرينو كرسيه ، دون
أن يشعرها بوجوده ، واقترب من جرازبيلا ، ووضع راحة
يده على ذلك الظهر الناعم الذى ما زال يرجف بالنشيج ،
وقوامها البديع • وشعرت الفتاة التى نال منها الحزن كل
منال ، فى نهاية الامر ، بمسسته • وأدارت وجهها العذب
التقاطيع الذى ما زال مبللا بالدموع نحوه ، وألقت بذراعيها
حول عنق معزيها ، الذى ظل هناك ، مؤديا واجبه ، فى هذا
الوضع ، وقد غرقت إحدى صفحتي وجهه بدموع اليتيمة •
ذلك كان من أروع أيام زفيرينو • وليلتها مرت أمام عينيهِ
المفتوحتين أحلام غريبة • وكانت أفكاره تعود دائما الى نقطة
ثابتة ، أكان مما يصدق أن جرازبيلا ، وقد غلبها الحزن على
أمرها ، لم تشعر بذراعى ابن خالها ، وقد استدارتا بهما
وراحتا تهتصرانها ، لحظة ؟ وعاد صباح اليوم التالى الى بيت
جرازبيلا ، ولكن كلماتها الاولى أقنعت به بأن الطفلة المسكينة
لم تحس اطلاقا بما حدث فى اليوم السابق • إلا أن زفيرينو
استمر مع ذلك يحس بذراعيها حول عنقه ، وبخدها ازاءه
طوال أيام عديدة ، طوال أسابيع • وفى بعض الأحيان لم

يكن بمقدوره أن يجرى صاعدا على سلاله بيتها إلا شمس
بخفق غرامي في صدره .

وكانت كارميلا تغادر بيتها للمرة الأخيرة ، لتذهب إلى
الدير . وكان أبواها الحزينان يحيطان بها ، وأخوتها وأخواتها
يحاولون جميعا أن يكاثموا بدموعهم ، وكان زفيرينو يقف في
وسطهم ، يبسود متحيرا . لكنه ، هو الآخر ، استطاع أن
يقبل الراهبة الجديدة . ومن هذه التجربة ، راح يحمل طول
الموسم ، ذكرى الطعم الحلو المر المؤلف من الدمع والشمع
والرخام . ذلك أيضا كان يوما لا ينسى .

وكانت العمة كلوتيلدا عمة خاصة جدا . كانت أصغر
بسنتين من ابن أخيها ، إذ كانت قد تزوجت وهي صغيرة
جدا بأصغر أعمام زفيرينو - وكان رجلا قافها ضحلا قابسيا
هجرها فور زواجهما إلى حضن امرأة أخرى .

ولكنها ظلت برغم هجرانه شابة نضرة بشكل غريب ، لا أحد
يدري كيف . وذهب زفيرينو يوما ليزورها ومعه القائمة
الكاملة للأرقام الاربعة في اليانصيب ، ليراجع رقم تذكرة
عمته عليها . فوجدها شاحبة مضطربة ، وقد نال منها رعب
عظيم . كانت قد رأت ، قبل ذلك مباشرة ، ظلا معتما يندفع
أمام النافذة المفتوحة على الفناء، وسمعت بالفعل صرخات وأنينا
يصعد اليها من الفناء . وأخذت تخبره بالحكاية، وتهزها رجفة
ذعر واستبشاع ، من القوة بحيث شحب وجهها مرة أخرى
شحوبا مخيفا ، ولولا ذراع ابن أخيها لسقطت على الأرض
متهالوية . ورفع زفيرينو عمته إلى الكنب ، وانتظر حتى يسكن
طائرهما وتتمالك جأشها . وكان الوقت صيفا ، وهما وحدهما
في البيت . وأخذ يسوى وسادة خلف رأسها ، ورفع يدها
التي كانت متدللة بلا حياة ، فوضعها على صدرها . وأخذ
يهوى وجهها المندى بالعرق ، وفك ، بأصابع مضطربة عقدا
كان يزين عنقها . ماذا كان يوسعه أن يفعل أيضا ؟

وعندما عادت الى الوعي ، كانت عيناها ، ما تزالان مغمضتين ، وكانت تصعد أنفاسا ثقيلة . وأخذ زفيرينو يناديها باسمها ، بلطف ورقة : كلوتيلدا . . كلوتيلدا - بالرغم من أنه لم يكن يناديها ، حتى ذلك الوقت ، الا « عمتى » . ثم أخذ يدعوها تيلدا . . ثم كلوتى . . وأخيرا ركع على ركبتيه ، وأخذ يهتف بها بصوت خافت : تيلدا ، حبيبتي . . وتنهد تنهدا عميقة : يا غرامى . . وبينما كان يدعوها ، على هذا النمط ، فتحت عينيها على سعتيها ، وصفعته بيد متراخية ، وهى تؤنبه بمكر ولطف ، وقد عاد الدم فخرج وجنتيها وزاد من جمالها ، وما زالت راقدة . وقالت له : بالاسم ، والفعل أيضا ، مشيرة الى اسمه « باشيو شيولى » الذى يعنى ذلك الذى يحب التقبيل كثيرا . ألم تكن تلك اللحاظ ، والتلميحات ، الا مما يدخل فى نطاق علاقة العمه بابن أخيها ، لا أكثر ؟ أخذ هذا السؤال يلح على زفيرينو وقتا طويلا ، ولم يأت ليזורها ، ولم يقرأ لها قائمة اليانصيب الكاملة ، الا بعد مرور فترة أخرى من الوقت .

وكان أحد أبناء أعمامه البعيدين ، لياندرى ، على وشك الابحار فى رحلة لليابان ، ليقوم بمهمة تستلزم غيابه عن الوطن ، وتستغرق منه بضعة شهور . وكانت زوجته ، وبناته الأربع ، يودعنه . المسكينات حتى اللحظة الأخيرة لم يقوين على قبول فكرة الفراق . كان ذلك مشهدا مؤلما للعائلة والاصدقاء وكان زفيرينو هناك أيضا ، بالطبع . وفى طريقه للرجوع - ولم يكن يسكن بعيدا عن بيت ابن عمه - وجد نفسه محشورا فى العربة مع بنت عمه ، وبناتها الأربع ، وقد أنساهن الاسى كل شيء ، فلم يشعرن بأنهن يغرقن ابن عمهن العزيز . أما هو ، من ناحيته ، فقد كان سعيدا ، كما لو كان أبيا محبوبا ، وقد كاد يختنق تقريبا بين نونزائيتينا ، ويولندينا ، وفيلومينا ، وبالميرا ، وأمهن التى لم تكن تملك الا أن تهزها العربة ، وتقف بها هنا وهناك فى الداخل . ودفع زفيرينو أجرة السائق ،

وصعب السيدات على السلالم ، عاجزا عن أن ينتزع نفسه من بين هذه الوجوه الصغيرة المتورمة بالآسى والألم ، وقد عقد نيته سرا على أن يدخل معهن الى البيت ، ويبقى ليواسيهن الاربع أو الخمس جميعا . ولكن الباب ما كاد ينفتح حتى اندفع جرو أسود صغير ، وهب على ساقيه ، وهو ينبع ويعوى ، كما لو كان يقى البيت الذى غادره سيده فترة من الزمن ، ويدود عنه الغرباء . فسلم عليهن زفيرينو من الباب ، ورجع . وفى تلك الليلة ، حلم بالحُسن ، مع حذف الكلب ، فى اختلاط ممتع لذيذ يدعو الى النشوة ، من مشيخا عن العم وابن العم وصديق العائلة ، ممتزجة كلها بعضها ببعض . وبعد بضعة أيام ، بحجة سؤاله عن أخبار لياندرى - بالرغم من أنه كان يستحيل أن تكون قد وصلت ثم أخبار فى هذه الفترة القليلة - عاد الى البيت ، واندفع على السلالم ثانية ، وفى يده علبة حلوى وباقة زهر . وكان على وشك أن يدق الجرس ، الا أن الكلب اللعين ، خلف الباب المقفل ، أخذ ينبع بغضب وثورة ، حتى كف زفيرينو ، ووقف ساكنا بلا حراك ، يده مرفوعة متصلة . ثم نزل بهدوء على أطراف أصابعه .

مسكين زفيرينو باتشيو شولى - كم كان ليرضى ، فى تلك المناسبة ، كشأنه دائما . بالقليل جدا . . .

هاسيمو بوثيميل :

ولد في كومو سنة ١٨٧٨ ، وبدأ حياته مدرسا بالمدراس الثانوية ، حتى سنة ١٩١٠ . ثم عين رئيسا للتحرير في صحيفتين متعاقبتين ، وأسس مجلته الخاصة « ٩٠٠ » ، وقد شغل بالحركة السيريالية حيناً ، وكتب شعرا وقصصا قصيرة وروايات وكوميديات ومهازل ، بل ألف الموسيقى أيضا .

وفي قصصه أحيانا حساسية تكاد تشفى على الحساسية الانشوية ، واحساس بالأجواء والمشاعر الريفية - كما هو الشأن في « الديك » ، يكاد يذكر المزمع بالكاتب الانجليزى هـ . أ . بيتسي

و « الديك » ، على صغرهما ، وتفاهة شأنها فيما يبدو لقارئ غير صائح ، قصة موحية ، غنية . وليس الديك الا عنصرا أوليا بدائيا ، في كبريائه وزهوه وإبائه ، من العناصر الوثيقة الصلبة بجذور الحياة ، والارض . وقد انتقل فجأة الى شقة ضيقة في المدينة ، وحبس بين جدران صماء نظيفة ، على بلاط ممسوح ، مربوطا بقطعة من الدوبارة . لكنه يقلق أولئك الناس من أهل المدينة ، ويشعرهم بإثم غامض يشيع في طراز حياتهم ، وعليهم أن يكفروا عنه . والخادمة الريفية لا تدرك من الازمة المستجفية الا أخلاقية ساذجة صارمة هي أخلاقية الريف التي لا تتبع الا خطأ واحدا مرسوما للسلوك . ولكن نزعة بدائية عميقة وغامضة في نفوس بسيطة متحضرة ، تتغلب على الحل التقليدي ، وتعيد تأكيد قيم أساسية . وتطلق سراح العنصر الأبوي

« الديك »

(ماسيمو بوئيمبيلي)

كان لوشيانو - الذي يعيش في الريفت - قد أرسل إلى أصدقائه ديكا صغيرا على سبيل الهدية . وكان هؤلاء الأصدقاء - الجد ، والأم ، وساندرينو ، يجلسون إلى المائدة ، وعندما وصل الديك ، فظهرت دولوريس عند باب غرفة الطعام ، وقد تخرج وجهها من الانفعال ، وأعلنت النبا بصوت مرتفع . فذهب ثلاثتهم عندئذ ، وجروا إلى المطبخ ليروه . وكان الديك قد احتوى تحت حوض المطبخ ، ووقف هناك منتصب القسامة ، لا حراك به إلا فيما يتعلق بعنقه ومنقاره الذي كان يطعن به ، في تشنج ، في اتجاه الكائنات الانسانية التي وقفت متزاحمة بالباب ، تراقبه في صمت ، مفتتنة به .

حتى دولوريس لم تقل شيئا ، لكنها لم تكن خائفة . وكانت تبسم ابتسامة راضية ، فقد شعرت أنها عادت إلى الريفت مرة أخرى . وكان ثم شيء تريد أن تعبر عنه ، لكنها لم تستطع أن تجد الكلمات . وكان خوف سادتها يبدو لها مضحكا داعيا للسخرية . ثم قال الجد في النهاية :

- ده ديك ، اسمه باللاتيني « جالاس كريستاس »

فقطع ذلك السحر ، وأطلق ساندرينو صرخة كصرخة المحاربين ، وهم بأن يندفع نحو الديك ، لكن الديك قفز فجأة فأمسكته أمه ، صائخة ، من كتفه ، وجرتة إلى الخلف .

ثم عبرت دولوريس المطبخ ضاحكة ، واتجهت إلى الحوض مباشرة ، وانحنى على العدو ، وأمسكته بمهارة من رجليه ، ورفعته عاليا ، منتصرة ظافرة . وتدلى الديك منقلبا رأسا على عقب ، وهز عنقه المغطى بالريش المتهيج ، تغلوه عينان مدورتان

كأنهما حصاتان • وسألتهما دولوريس ، مشرقة الوجه •

- ندبحه دلوجت ؟

فبشرت رجفة في الأشخاص الثلاثة المزدحمين بالبساط •
واكتشفت الأم فجأة سببا وجيها لتفتأ به حماس دولوريس :

- لا • نستنى لما بابا ييجى • حيرجع بكره الصبح •

وهتف الجد ، وساندرينو معا :

• أيوه • أيوه •

فقالت دولوريس :

- طيب ، بكره ييجى • أول ما سيدي يشوفه نبجي ندبحه ،
ونعمل منه عشوة يوم الحد •

وأسرعت قائلة :

- ونعطه فين لغاية الصبح ؟

وبعد أن طرحت اقتراحات شتى على بساط البحث ، انعقد
الاتفاق على اقتراح دولوريس بأن يوضع في البلكونة الصغيرة
الواقعة في نهاية الممر • ومن ثم أخذته ، وربطت دوّبارة بإحدى
رجليه ، وقال ساندرينو موصيا :

- طولي الدوّبارة أحسن ، عشان ماتبقاش ثقيلة عليه •

ورجع إلى المطبخ •

وبقى الآخرون قليلا ، يراقبون الديك الرائع ، من النافذة •
كان قد اتخذ مركزه في وسط البلكونة ، ووقف بلا حراك ،
زاهيا شامخا ، كما لو كان مركز الكون •

كانت فكرة غريبة من لوشيانو أن يرسل هذا الديك إلى

ليشكروه ، وعلى ذلك مضت الأم لتكتب الخطاب ، وذهب
ليشكروه ، وعلى ذلك مضت الأم لتكتب الخطاب ، وذهب
ساندرينو ليذاكر دروسه ، ومضى الجد الى سريره . وما كادت
ربع ساعة تمضي ، حتى كان ساندرينو ، على أطراف قدميه ،
في الممر ، ليلقي نظرة على البلكونة . وما ان وصل هناك حتى
سمع حفيفا ، واستدار . كانت أمه قد جاءت ، بنفس الفكرة .

- ودروسك يا شقي ؟

- وانت يا ماما ، الجواب ؟

ورجع كل منهما ضاحكا الى مهمته ، فلاحظا باب غرفة النوم
ينفتح عن الجد . وما ان حان وقت العشاء حتى كانوا في غير
حاجة للتعامل بالاعذار ، ليتزاحموا في الباب ، ويحدقوا الى
ضيقتهم .

كان الديك يخطر متبخترا الان ، مشدود القامة ، وفي عينيه
نظرة شريرة . واستحالت البلكونة الصغيرة ، فيما يبدو ،
الى مقصورة خاصة به . وكانت دولوريس قد وضعت في ركن
منها طبقا به طعام . لكن الديك لم يمسه .

وبدا الجد يتكلم :

- الديك من أقل الحيوانات ذكاء .

فقال ساندرينو :

- باين عليه مبسوط من نفسه جدا .

وتنهدت الأم في شكوى ، وقالت :

- تصوروا انه امبارح بس كان حر ، في الملاحين ، في وسط فراخه .

ووصلت دولوريس فجأة ، وما كادت تسمع كلمة « فراخ »
حتى انفجرت بالبكاء .

- مالك ، جرى ايه ؟

فأجابت البنت من بين دموعها :

- ولا حاجة يا ستى ، ما فيش - مافيش حاجة .

وكانت فى الواقع قد كفت عن البكاء ، ودعكت عينيها بسرعة
بظهر يديها ، وسألت :

- ندبحه بالسكينة ، ولا نجطم رجبته ؟

وفى عينيها ومضة .

فقالت سيدتها بسرعة :

- ما احنا اتفقنا على بكرة خلاص .

وواصل الديك خطوه فى البلكونة ، بصمت وجلال ، ولم
يلق لسجانيه بنظرة . وكانت الشمس تغرب الان ، فتكسب
ريشه الخلفى صبغة بنفسجية ضاربة للاحمرار . وفتحت
دولوريس باب البلكونة . وما أن سمع الديك الصوت حتى
استدار . وكانت أشعة الشمس تمس الان عرقه وغيبه . وكان
يتبخر فى كبر ، وريش ذيله يضرب الهواء ، وصدره منتفخ
بالغضب المكتوم . فقالت الام :

- مش معقول انه كان كتكوت فى يوم من الايام ، كتكوت
أصفر صغير .

فقال الجد :

- أدخل الديك من الصين الى أوروبا ، قبل المسيح بعشرة
قرون .

وتمتت الام :

- ساندرينو ، فيه حاجة شاغلالك ؟

فأجاب الولد :

أصله لازم زعلان جدا .

وفجأة قفز الديك قفزة واحدة رشيقة ، ونط الى مقعد
شبابي في الركن .

وهتفت دولوريس : الله . وقد فزعت ، واندفعت الى الامام
لتخبط الديك فتنزله من على الكرسي ، وتبعد الكرسي من قاعدة
النافذة . وقالت على سبيل التفسير :

- ينط كمان على الشباك ، ويمرج على طول .

وكانت محقة ، فقد كانت النافذة على مقربة من مستوى
الارض ، وكان يوجد تحت البلكونة تماما أرض صغيرة غير
مزروعة ، تفضي الى الشارع .

- كويس اننى وصلت دلوجت . لو ما بعدت الكرسي من
هناك ، كان مرج بالليل .

وحدث الديك الى دولوريس ، بعين واحدة أولا ، ثم بالعين
الآخرى . وكان يبدو أنه لا ينظر اليها بانسان العين ، بل
بالبقعة البيضاء تحت محجرها .

وكانت الظلال قد طالبت على الشرفة ، بعد ساعة أو ساعتين،
ولم يكن الديك قد نقر فى شيء على الاطلاق ، من الطعام المجهز
فى الطبق ، ولو على سبيل التجربة .

- حياكل الليلة ؟

- وهو عارف انه حياكل آخر مرة فى حياته ؟

وتعشوا فى ضمت جميعا ، ومضوا الى الفراش بسرعة .

والتام شمل العائلة فى الساعة السابعة من صباح اليوم

التالى بالضبط . ككل صباح اخر . « صباح الخير » . « صباح الخير » . « صباح البعض » . كان ذلك ، على الاقل ، واضحا . وكانت الام تجهز الفطور دائما ، لان دولوريس كانت تذهب فى هذا الوقت الى السوق . ويبدو ان صنع القهوة باللبن كان يستغرق اليوم اهتمام الام ، أكثر من المعتاد ، لسبب غامض . وأغرب من ذلك أن أحدا من الثلاثة لم يخطر له أن يذهب ليقول للمدبر صباح الخير ، ولم ينبس أحدهم بكلمة . وفى أثناء ذلك كانت دولوريس قد رجعت ، مبهورة الانفاس ، بسلتها ، من السوق . فقالت بصوت مرتفع من بعيد :

— أنا رحت السوق جوام ، وما شفتش حتى اذا كان أكل حاجة . عشان لازم ندبحه من غير الحوصلة ما تكون مليانة ، امتى سيدى حاييجى ؟

. ولم تنتظر اجابة ، بل اندفعت كالسهم . ولكن ساندرينو قام عن قهوته ، ولم يكملها بعد ، قائلا :

— لازم أروح طيران ، بعدين أتأخر عالمدرسة .

ومضى ، وصفق الباب خلفه ، بينما كان الجد يتمتم :

— الله . انا نسيت نضارتي .

وجرى الى غرفة نومه .

وأخذت الام ، فى بطن مقصود متعمد ، تعسد الاكواب المصفوفة فى الدولاب . وكانت حادة السمع جدا . وبينما هى تعد ، كانت تسمع كل خطوة من خطوات دولوريس فى الممر ، وصوت السلة يقذف بها على الكرسي ، وخطوتين أخريتين ، ثم الباب . كانت دولوريس تفتح باب البلكونة . لحظة وجيزة من الصمت التام بعد هذه الاصوات الدقيقة ، ثم صرخة ثاقبة من دولوريس عبر الفسحة . وهى تنادى :

- ستي • ستي •

وفى ثانية ، كانت قد عادت ، وقبضت على سيدتها من ذراعها ، وجرتها جرا الى نهاية الممر ، أمام النافذة المفتوحة • وأشارت الى البلكونة الخاوية ، والدوبارة المقطوعة ، وقاعدة النافذة •

- هرب • مرج • جطع الدوبارة • ماكنتش عايزه • آ آه •

وتنهدت ، وأطلقت صرخة أخرى مروعة ، واندفعت لتفحص طرف الدوبارة الذى كان يتدلى من مسمار حديدى ، بتدقيق أكثر •

- لكن طرف الدوبارة مش متاكل ولا مفروول • دا مجطوع نضيف بالسكينة ، ولا مجص • مين جطعه دلوجت • • مش أنى • وأبعدت السيدة يدها بلطف عن ذراعها ، وتظاهرت بأنها تصغى اليها ، وقالت :

- لحظة واحدة • أونكل بينادينى •

وجرت الى هذا الاخير ، فى غرفة نومه ، ودخلت ، وأغلقت الباب خلفها •

ووجدت دولوريس نفسها وحيدة ، بالقرب من النافذة المفتوحة ، فى البلكونة المهجورة ، أمام الدوبارة المقطوعة • وأحست نفسها وحدها فى العالم الفسيح المليء باناس غرباء ، وأشياء غريبة لا تفهمها • وكانت خائفة كما لو كانت قد رأت جدران البيت تنهار وتنقض الى الارض • وانفجرت باكية كما لو كان كل أفراد عائلتها التى تعيش فى الريف ، قد ماتوا فجأة جميعا •

أرنالدو فراتيلي : -

ولد في سنة ١٨٨٨ واشتغل بالتدريس في مدرسة ثانوية ،
ثم انتقل - كالمعتاد - الى الصحافة والنقد . وقد ظهرت قصته
التي نختارها له في مجموعة قصص ظهرت في سنة ١٩٣٤ .
وكتب روايات أثارت الاهتمام ، عالج في احداها مصير « المرأة
ساقطة » ما تزال تنشده الحب الحقيقي فتخطئه ، حتى اذا وجدته
اقتحم الموت مسرحها .

وفي عمله حس قوى بالسخرية المريرة . و « مغامرة في
الليل » بالرغم من جنوحها نحو « العاطفية » - وتلك فيما
نحسب سمة من سمات المزاج الايطالي البارزة ، بانفعاله
السهل وطيرانه نحو الاغراق والمغالاة ، بل بلغته الموسيقية
المجنحة المغموسة بالاستعارة والتورية والتشبيه - الا أن القصة
مع ذلك تقع على أزمة لها اصالتها ، واحساس بالفقد لا تعويض
له ، والقسوة الصخرية التي ينكشف عنها وجه الحياة ، أحيانا ،
كأنها الجمود الحجري العتيق الذي يرين على جبل « الاقصر »
في صعيد مصر ، بما فيه من قبور قديمة منقورة ، وفاغرة ،
ما تزال موحية بأمجاد كأنها امجاد حب مفقود . والولاثم الملونة
المنقوشة على الجدران في قلب الجبل تثير في قلب الغريب
المحروم المكظوم ، شهوة للحياة كادت أن تخبو ، لكنه يصحو
فاذا هي رسوم جامدة ، اقنعة لا دم فيها ، وقد سخرت منه ،
وخدعته ، لكنها أيقظته وردته للحياة ، مثقلا بالحبوط ، صحيح ،
ولكنه مع ذلك مردود الى الحياة .

صدر في ١٧ سمبتمبر (أيلول) سنة ١٩٥٩



مدرسة الاسكندرية
إشراف وزارة التربية والتعليم والوزراء

٩٣ شارع نوبار - باب اللوق
أمام مطبعة مصر - تليفون ٣٩١٣٥

تعلن عن قبول حاملي

الثانوية العامة والثانوية

وما يعادلها من الجنسين

لتؤهلهم لوظائف ضباط الاسكندرية بالدرجة السابقة الفنية مع عذوة لاسكندرية
فصول عديدة الهندسية (المدنية) من مائة إلى مائة وأربعين

الاستعداد من ١٠ إلى ١٢ سنة ومن ٨ إلى ٨ سنوات
تطلب الشهادة من إدارة التعليم

روايات عالمية

تقدم

سر الدكتور فومانشو

الثمن ٣ قروش

يصدر السيت القادم

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

تطرح هيئة قناة السويس في مناقصة عامة عملية انشاء
مبانى سور حول محطة الابحاث بالاسماعيلية وردم المنطقة
المحيطة بها .

ويمكن الحصول على الشروط والرسومات بالحضور شخصيا
الى مقر الهيئة (قسم الابحاث والمشروعات) بالاسماعيلية -
وثمن النسخة خمسة جنيهات .

وتقدم العطاءات باسم السيد/ رئيس هيئة قناة
(قسم الابحاث والمشروعات) وآخر ميعاد لتقب
هو ظهر يوم الاثنين ٢٨ سبتمبر ١٩٥٩ على أن ت
مصحوبة بتأمين ابتدائي قدره ٥٠٠ ج ولن يلتفت
يقدم بعد هذا التاريخ او غير مصحوبا بالتأمين

الثمن ٥ قروش

الكتاب السادس عشر

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٢ شارع طلعت حرب - القاهرة

Bibliotheca Alexandrina



0704031

912
8
259
1
59